الفصل الثالث

منهجه في توحيد الألوهية

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف توحيد الألوهية ومكانته في الدين .

المبحث الثاني : منهجه في تقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك .

المبحث الثالث : خصائص الألوهية ومجالاتها .

المبحث الأول
تعريف توحيد الألوهية ومكانته في الدين

سبق معنا عند الحديث عن أنواع التوحيد وموقف سيد قطب منها : بيان مفهوم توحيد الألوهية والربوبية والعلاقة بينهما عند جمهور السلف وعند سيد قطب ، وحقيقة الخلاف بينهما وسببه ، ويمكننا هنا أن نشير إلى مفهوم الألوهية عند سيد قطب - رحمه الله - كما يأتي :

ويمكننا هنا أن نشير إلى مفهوم الألوهية عند سيد قطب رحمه الله - كما يأتي :

أولًا: تعريف توحيد الألوهية عند جمهور السلف :

يقصد بتوحيد الألوهية عند جمهور أهل السُّنَّة والجماعة : توحيد الله -سبحانه وتعالى - بأفعال العباد ، بمعنى بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة دون سواه وهو معنى " لا إله إلا الله " ، أي لا معبود بحق إلا الله .

وهذا النوع من التوحيد - توحيد الألوهية - هو الذي كان ينكره المشركون مع إقرارهم بتوحيد الربوبية وأن الله هو الخالق ،والرب والمالك والمدبر كما حكى القرآن ذلك عنهم كثيرًا [1] .

ثانيًا: تعريف توحيد الألوهية عند سيد قطب :

يرى سيد - تبعًا للمودودي : أن الألوهية مصطلح عام وشامل يندرج تحته مجالان :

المجال الأول: تدبير الله للكون وما فيه ومن فيه، وتصريف الحياة فيه ، وضبط النواميس والسنن التي تسيره - وهذا ما يسميه أهل السُّنَّة بالربوبية -.

المجال الثاني: مجال الحكم والتشريع للناس وتدبير أمورهم وإخضاعهم وتعبيدهم لله سبحانه وتعالى - وهذا ما يسميه أهل السُّنَّة بالألوهية - ويطلق عليه

(١) ينظر في ذلك : شرح الطحاوية ١/ ٢٤ ، وفتح المنان للألوسي ص ٥٢١ ، وشرح الواسطية لابن عثيمين ص٢٠ .

سيد قطب اسم " الربوبية " ويجعله مظهرًا ومجالًا من مجالات الألوهية العامة .

ويرى سيد أن المشركين كانوا منكرين لهذا النوع من التوحيد وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالحاكمية والتشريع والطاعة ، ويظهر من خلال ما سبق :

١-أن سيدًا - رحمه الله - يتفق مع جمهور أهل السُّنَّة والجماعة على حقيقة التوحيد، حيث يرى الجميع أن التوحيد مصطلح يشمل الإقرار بوجود الله ووحدانيته وأفعاله وصفاته ، والتوجه إلى إليه وحده بالعبادة والطاعة في كل أمور الحياة، وإن اختلف معهم في تسمية أقسام هذا التوحيد و أنواعه ، لكن النتيجة العامة عند الجميع واحدة في حقيقتها .

٢- أن الجميع يقررون تلازم أنواع التوحيد وترابطها ، وأنه لابد من وجودها جميعًا حتى يكون مقبولًا عند الله تعالى ، وأنه لا يقبل جزء دون أخر.

٣- أن الجميع متفقون على أن توحيد الألوهية هو الأساس والغاية ، والنتيجة والثمرة الذي لا يقبل الله إيمان أحد ولا عمله إلا أن يقرَّ به ، ويقصره على الله وحده لا شريك له سواء عند أهل السُّنَّة الذين يسمونه بتوحيد الألوهية ، أو عند سيد الذي يسميه بالربوبية ويجعله مظهرًا من مظاهر الألوهية العامة.

٤- أن سيد قطب - وقبله المودودي أيضا - في بيانهم لمفهوم الألوهية والربوبية اعتمدا على بعض ما ورد في اللغة العربية من استعمال لمصطلح الربوبية في الملك والحاكمية والطاعة والسلطان والتشريع ونحوها . واستعمال الألوهية في التدبير والحاكمية والسلطان ، والطاعة والعبادة [١]، وكذا اعتمدا على بعض الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ الألوهية والربوبية بهذه المعاني [٢].

ثالثًا: مكانة توحيد الألوهية في الدين :

توحيد الألوهية عند أهل السُّنَّة والجماعة هو الغاية العظمى، والمقصد الأساسي

---

(١) انظر: لسان العرب (١/ ٢٢ ، (١٣/ ٤٦٨ ، وفي ظلال القرآن في الميزان، د/ صلاح الخالدي ص ١٦٨-١٧٠.

(٢) المصطلحات الأربعة للمودودي ص ١٥ وما بعدها ، وفي ظلال القرآن ، سيد قطب : ١/ ٣٨٣ ، ٣٨٥، ٤٨٢ ، ٤٩٢ ، ٢/ ١٠٦٣ ، ٣/ ١٣٤٦ ، ١٣٥٣ ، ١٧٦٣ ، ٤/ ١٩١٠، ١٩١٢، وفي ظلال القرآن في الميزان، د/ صلاح الخالدي ص١٥٥ وما بعدها .

الذي من أجله خلق الله الخلق وأوجدهم في هذه الأرض ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١).

وهو أيضًا الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، فإن الله لم يبعث رسله وينزل كتبه إلا لتعريف خلقه به سبحانه وإخلاص توحيده وإفراده في العبادة قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (٢).

كما أن توحيد الألوهية من أعظم الأصول التي قررها القرآن الكريم ، وأكملها وأفضلها ، وألزمها لصلاح الإنسانية ، وجميع الآيات القرآنية إما أمر به ، أو بحق من حقوقه أو نهى عن ضده ، أو إقامة حجة عليه ، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة ، أو الفرق بينهم وبين المشركين .

كما أنه أول واجب على المكلف وآخر ما يخرج به الإنسان من هذه الدنيا (٣).

أما مكانة توحيد الألوهية والعبادة وأثاره في حياة البشرية عند سيد قطب فيمكن بيانه فيما يأتي :

١ - نزول القرآن الكريم لتقريره: يقول سيد " إن القضية التي نزل الكتاب – القرآن الكريم – لتقريرها وتوكيدها ، هي قضية توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، وإخلاص الدين له ، وتنزيهه عن الشرك في كل صورة من صوره ، والاتجاه إليه مباشرة بلا وسيط ولا شفيع " (٤).

٢ - كونه الغاية التي بعث من أجلها النبي ﷺ : يقول سيد " إن منهج النبي ﷺ الذي يدعو إليه الناس كافة هو عبادة الله وحده وإخلاص الدين له ، وقيام الحياة على أساس هذا التوحيد . وتوحيد الله وإخلاص الدين له ليس كلمة تقال باللسان، وإنما هو منهاج حياة كاملة ، يبدأ من تصور واعتقاد في الضمير ، وينتهي إلى نظام

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٢) سورة النحل : الآية ٣٦ .

(٣) ينظر ذلك : شرح العقيدة الطحاوية ٢١ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٤٣ ، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني دار الكتب العلمية ب٠ت ، ص ٣٠، ٣١ ، ومعارج القبول للحكمي دار ابن القيم – الدمام ط٣ عام ١٤١٥هـ ٢/ ٤٠٢ وما بعدها ،

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٣٦ .

يشمل حياة الفرد والجماعة "[١].

٣- كونه مفرق الطريق بين الإسلام وما سواه : يقول سيد : "وهذا التوحيد الخالص الناصع وهو مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائر العقائد ، سواء عقائد الملحدين والمشركين ، أو عقائد أهل الكتاب المنحرفين ، يهودًا أو نصارى على اختلاف مللهم ونحلهم جميعًا ، كما أنه هو مفرق الطريق بين حياة المسلم وحياة سائر أهل العقائد في الأرض ، فالعقيدة هنا تحدد منهج الحياة ونظامها تحديدًا كاملًا دقيقًا"[٢]، وبالتالي ركز عليها القرآن الكريم كثيرًا .

٤- كونه قاعدة الإيمان : يقول سيد : " إن وحدة الألوهية هي القاعدة الكبيرة التي يقوم عليها التصور الإيماني فلم يكن هناك جدل حول الاعتقاد بوجود إله - تختلف التصورات حول ذاته وصفاته وحول علاقاته بالخلق ولكنها لا تنفي وجوده، - ولم يقع أن نسيت الفطرة هذه الحقيقة ، حقيقة وجود إله، إلا في هذه الأيام الأخيرة ، حيث نبتت نابتة منقطعة عن أصل الحياة ، منقطعة عن أصل الفطرة ، تنكر وجود الله ، وهي نابتة شاذة لا جذور لها في أصل هذا الوجود ، ومن ثم فمصيرها حتمًا إلى الفناء والاندثار عن هذا الوجود ، والذي لا يطيق تكوينه ولا فطرته بقاء هذا الصنف من الخلائق مقطوعة الجذور !.

ولذلك اتجه السياق القرآني دائمًا إلى الحديث عن وحدة الألوهية ، بوصفها التصحيح الضروري للتصور، والقاعدة الأساسية لإقامة هذا التصور.. ثم لإقامة سائر القواعد الأخلاقية والنظم الاجتماعية المنبثقة من هذا التصور ، تصور وحده الألوهية في هذا الوجود ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

ومن وحدانية الألوهية التي يؤكدها هذا التأكيد ، بشتى أساليب التوكيد ، يتوحد المعبود الذي يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة ، وتتوحد الجهة التي يتلقى منها الخلق قواعد الأخلاق والسلوك ، ويتوحد المصدر الذي يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين ، ويتوحد المنهج الذي يصرف حياة الخلق في كل طريق "[٣].

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٣٠٣٦ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٦٥-٣٦٧، ٣٩٠ .

(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٥١-١٥٢ بتصرف .

٥- كونه الأصل الذي ينبثق منه منهج الإسلام للحياة : يقول سيد : " فهذه الوحدانية الحاسمة التي لا مجال فيها لأي انحراف أو لبس مما طرأ على الديانات السابقة – بعد الرسل – كعقيدة التثليث عند النصارى .. والأساطير عند الوثنيين .. هذه الوحدانية الحاسمة الناصعة هي القاعدة التي يقوم عليه التصور الإسلامي، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها ، فمن هذا التصور ينشأ الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة ، فلا يكون إنسانًا عبدًا إلا لله ، ولا يتجه بالعبادة إلا لله ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله ، وما يأمره به من الطاعات ، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة الحاكمية لله وحده ، فيكون الله وحده هو المشرع للعباد ، ويجيء تشريع البشر مستمدًا من شريعة الله ، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم كلها من الله، فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل في ميزان الله ، ولا شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف عن منهج الله ، هكذا إلى أخر ما ينبثق عن الوحدانية من مشاعر في الضمير أو مناهج لحياة الناس في الأرض على السواء " [١].

٦- كونه أساس صلاح واستقامة الحياة البشرية عمومًا وسبب للاستعلاء بالإيمان: يقول سيد : " إن توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد القوامة ، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة ، وتوحيد منهج الحياة ، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة ، إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل ، وان تبذل في سبيله كل هذا الجهود ، وان تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان .. لا لأن الله سبحانه وتعالى في حاجة إليه ، فالله سبحانه وتعالى غني عن العالمين ، ولكن لأن حياة البشر لا تصلح و لا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح لائقة بالإنسان إلا بهذا التوحيد الذي لا حد له لتأثيره في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء " .

وقيمة حقيقة التوحيد في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء نبينها إجمالًا فيما يأتي :

– ننظر ابتداء إلى أثر حقيقة التوحيد – على هذا النحو الشامل – في كيان الكائن الإنساني نفسه من ناحية وجوده الذاتي، وحاجته الفطرية ، وتركيبة الإنساني، وأثرها في تصوره ، وأثر هذا التصور في كيانه ..إن هذا التصور إذ يتناول الأمور على هذا

(١) المصدر السابق ١/ ٢٨٦ بتصرف .

النحو الشامل - لكل معاني الشمول - يخاطب الكينونة البشرية بكل جوانبها ، وبكل أشواقها ، وبكل حاجاتها ، وبكل اتجاهاتها ، ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها ، جهة تطلب عندها كل شيء ، وتتوجه إليها بكل شيء ، جهة واحدة ترجوها وتخشاها ، وتتقي غضبها ، وتبتغي رضاها ، جهة واحدة تملك لها كل شيء ، لأنها خالقة كل شيء ، ومالكة كل شيء ، ومدبرة كل شيء .

كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد، تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها، وقيمها وموازينها وشرائعها وقوانينها، وتجد عنده إجابة عن كل سؤال يجيش فيها وهي تواجه الكون والحياة والإنسان،بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام.

عندئذ تتجمع هذه الكينونة .. تتجمع شعورًا وسلوكًا ، وتصورًا واستجابة ، في شأن العقيدة والمنهج وشأن الاستمداد والتلقي ، وشأن الحياة والموت ، وشأن السعي والحركة ، وشأن الصحة والرزق ، وشأن الدنيا والآخرة ، فلا تتفرق مزقًا، ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق، ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق.

والكينونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو ، تصبح في خير حالاتها ، لأنها تكون حينئذ في حالة " الوحدة " التي هي طابع الحقيقة في كل مجالاتها .. فالوحدة هي حقيقة الخالق- سبحانه وتعالى- الوحدة هي حقيقة هذا الكون على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال ، والوحدة هي حقيقة الحياة والأحياء على تنوع الأنواع والأجناس ، والوحدة هي حقيقة الإنسان على تنوع الأفراد والاستعدادات، والوحدة هي - غاية الوجود الإنساني- وهي العبادة - على تنوع مجالات العبادة وهيئاتها، وهكذا حيثما بحث الإنسان عن الحقيقة في هذا الوجود .

إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الإيماني، وإن كان هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة يقوم عليها بناء الحياة كلها ، بل إن أهميتها كذلك في حسن تذوق الحياة ، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق .

فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله ، وحين يصبح كل نشاط فيها - صغر أم كبر- جزءًا من هذه العبادة ، أو كل العبادة ، متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامن فيه ، وهو إفراد الله - سبحانه - بالألوهية والإقرار له وحده

بالعبودية.. هذا المقام الذي لا يرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه ، ولا يبلغ كماله الإنساني إلا في تحقيقه ، وهو المقام الذي بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى مقاماته التي ارتقى إليها، مقام تلقي الوحي من الله ، ومقام الإسراء.

وننتقل إلى قيمة أخرى من قيم توحيد العبادة ، بمعنى الدينونة لله وحده ، وآثارها في الحياة الإنسانية :- إن الدينونة لله تحرر البشر من الدينونة لغيره ، وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وبذلك تحقق للإنسان كرامته الحقيقية وحريته الحقيقية ، اللتان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر- غير النظام الإسلامي- يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية ، في صورة من صورها الكثيرة.. سواءً عبودية الاعتقاد، أوعبودية الشعائر، أوعبودية الشرائع، فكلها عبودية، وبعضها مثل بعض، تخضع الرقاب لغير الله، بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير الله.

والناس لا يملكون أن يعيشوا غير متدينين! لا بد للناس من دينونة ، والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله ، في كل جانب من جوانب الحياة! إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط ومن ثم يفقدون خاصتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[1].

ولا يخسر الإنسان شيئًا كأن يخسر آدميته ، ويندرج في عالم البهيمة ، وهذا هو الذي يقع حتماً بمجرد التملص من الدينونة لله وحده ، والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة ... وهذا يقودنا إلى قيمة توحيد العبادة والدينونة في صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم ، التي تصبح كلها ولا عاصم لها عندما يدين العباد للعباد ، في صورة من صور الدينونة . سواء في صورة حاكمية التشريع ، أو في صورة حاكمية الأعراف والتقاليد ، أو في صورة حاكمية الاعتقاد والتصور .

إن الدينونة لغير الله في الاعتقاد والتصور معناها الوقوع في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي ، والتي تمثل الجاهليات الوثنية المختلفة صورًا منها ، وتمثل أوهام العوام المختلفة صورًا منها ، وتقدم فيها النذور والأضاحي من

(١) سورة محمد، الآية ١٢.

الأموال - وأحيانا من الأولاد- تحت وطأة العقيدة الفاسدة والتصور المنحرف! ويعيش الناس معها في رعب من الأرباب الوهمية المختلفة ، ومن السدنة والكهنة المتصلين بهذه الأرباب ، ومن السحرة المتصلين بالجن والعفاريت ، ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار، ومن . . ومن . . من الأوهام التي ما يزال الناس في رعب منها ، وفي خوف و تقرب و رجاء ، حتى تتقطع أعناقهم وتتوزع جهودهم ، وتتبدد طاقاتهم في مثل هذا الهراء...

وأخيرًا تجيء تكاليف العبودية لحاكمية البشرية ، وما من أضحية يقدمها عابدُ الله لله إلا ويقدم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة ، من الأموال والأنفس والأعراض ...

وأخيرًا فإن توحيد العبادة والدينونة لله وحده ، ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تأليه الأرباب الزائفة، كي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض ، وترقيتها ، وترقية الحياة فيها "[1]

" فالقلب الذي يوحد الله ، يدين لله وحده ، ولا يحني هامته لأحد سواه ، ولا يطلب شيئًا من غيره ولا يعتمد على أحد من خلقه ، فالله وحده هو القوي عنده، وهو القاهر فوق عباده ، والعباد كلهم ضعاف مهازيل ، لا يملكون له نفعًا ولا ضرًا ، فلا حاجة به إلى أن يحني هامته لواحد منهم ، وهم مثله لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا .. فلا حاجة به إلى أن يتوجه لأحد غيره وهو الغني والخلق كلهم فقراء ... وكذلك تبدو آثار التوحيد في التصورات والمشاعر ، كما تبدو في السلوك والتصرفات ، وترسم للحياة كلها منهاجًا كاملًا واضحًا متميزًا ، ولا يعود التوحيد كلمة تقال باللسان ، من ثم كانت تلك العناية بتقرير عقيدة التوحيد وتكرار الحديث عنها في الكتاب الذي أنزله الله ، وهو حديث يحتاج إلى تدبره كل أحد ، في كل عصر، وفي كل بيئة ، فالتوحيد بمعناه ذلك عنى ضخم شامل يحتاج إلى فهم وإدراك ." [2]

ومن خلال ما سبق نجد أن سيد قطب – رحمه الله – يبين أهمية توحيد الألوهية

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٨ -١٩٤٣ بتصرف ، وينظر أيضًا : ١/ ٣٩٢، ٤/ ١٩٠١، ٥/ ٣٠٣٦ .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٠٣٦ بتصرف يسير .

- العبادة - في أمور عديدة منها :

١- تجميع الكينونة الإنسانية شعورًا وسلوكًا ، وتصورًا واستجابة ، واستمدادًا وتلقينًا ، في كل شؤون الحياة ، فلا تتفرق بها السبل .

٢- حسن تذوق الحياة ، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق.

٣- تحرير البشر من الدينونة لغير الله في أي صورة من صور الدينونة ، وبذلك يتحقق للإنسان كرامته وحريته الحقيقية التي لا يمكن أن توجد في غير صورة التوحيد الناصعة.

٤- صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم ، والتي تذهب كلها في ظل الدينونة لغير الله.

٥- حماية الإنسان من الوقوع في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي .

٧- صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تألية الأرباب الزائفة ، كي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض وترقيتها .

٨- تحقيق العزة والغنى للبشر ، فلا يذل الموحد ولا يحني هامته لغير الله سبحانه وتعالى.

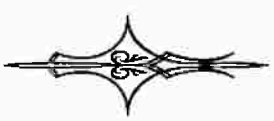

المبحث الثاني
منهجه في تقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك

سلك سيد قطب – رحمه الله – في تقريره لتوحيد الألوهية – العبادة – وإبطال الشرك ، مسلك أهل السُّنَّة والجماعة المتلقى من القرآن الكريم .[١]

وباستقراء كلامه حول هذا الموضوع نجد أنه ركز كثيرًا على بيان طريقة القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية – العبادة – وإبطال الشرك بكل صورة و أشكاله، ويمكن بيان طرق وأساليب القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية التي أشار إليها سيد – رحمه الله – فيما يأتي :

أولا :- الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك :

وهذا الأسلوب أحد أساليب القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية – العبادة– والدعوة إليه وإبطال ما سواه ، وقد جاء في كثير من الآيات القرآنية .

وقد أشار سيد – رحمه الله – إلى هذا الأسلوب القرآني في ظلال عدد من الآيات ومن ذلك :

١ – قوله – رحمه الله – : " إن الحقيقة الأولى البارزة التي تعرض في القرآن الكريم هي التركيز على الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة غيره ، وتقرير أن هذا هو الدين كله...

ويبقى هنا أن نجلي طريقة المنهج القرآني في تقرير هذه الحقيقة ، وقيمة هذه الطريقة :

إن حقيقة توحيد العبادة لله ترد في صيغتين هكذا :-

- ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[٢].

---

(١) ينظر : كلام أهل السُّنَّة في تقرير توحيد الألوهية في : دعوة التوحيد لهراس ص ٣٩-٤٥ ، والإرشاد للفوزان ص ٢٧-٣٠، وفقه التوحيد للشيخ خالد العك ص ٥٥ .

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٢٣.

- ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (١) .

وواضح اختلاف الصيغتين بين الأمر والنهي ، فهل مدلولهما واحد؟ .

إن مدلول الصيغة الأولى: الأمر بعبادة الله ، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد سواه، ومدلول الصيغة الثانية : النهي عن عبادة غير الله ...وهو مقتضى المدلول الأول ومفهومه ، ولكن الأول " منطوق " والأخر " مفهوم " ولقد اقتضت حكمة الله في بيان هذه الحقيقة الكبيرة ، عدم الاكتفاء بالمفهوم في النهي عن عبادة غير الله ، وتقرير هذا النهي عن طريق منطوق مستقل ، وإن كان مفهومًا ومتضمنًا في الأمر الأول.

إن هذا يعطينا إيحاءً عميقًا بقيمة تلك الحقيقة الكبيرة ، ووزنها في ميزان الله سبحانه ، بحيث تستحق ألا توكل إلى المفهوم المتضمن في الأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه، وأن يرد النهي عن عبادة سواه في منطوق مستقل يتضمن النهي بالنص المباشر لا بالمفهوم المتضمن! ولا بالمقتضى اللازم!.

- كذلك تعطينا طريقة المنهج القرآني في تقرير تلك الحقيقة بشطريها ، عبادة الله وعدم عبادة سواه أن النفس البشرية في حاجة إلى النص القاطع على شطري هذه الحقيقة سواء، وعدم الاكتفاء معها بالأمر بعبادة الله وحده ، ذلك أن الناس يجيء عليهم زمان لا يجحدون الله ولا يتركون عبادته ، ولكنهم - مع هذا - يعبدون معه غيره ، فيقعون في الشرك وهم يحسبون أنهم مسلمون! ومن ثم جاء التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد بالأمر وبالنهي معًا ، بحيث يؤكد أحدهما الأخر ، التوكيد الذي لا تبقى معه ثغرة ينفذ منها الشرك في صورة من صوره الكثيرة .

وقد تكرر مثل هذا التعبير القرآني في مواضع شتى، هذه نماذج منها من هذه السورة ومن سواها:

- ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (٢).

---

(١) سورة هود: الآية ٢.

(٢) سورة هود: الآية ١ - ٢.

- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[١] .

- ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾[٢] .

- ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[٣] .

- ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٤] .

- ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٥] .

وهو منهج مطرد في التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد ، له دلالته من غير شك، سواء في تجلية قيمة هذه الحقيقة وضخامتها التي تستدعي ألا توكل في أي جانب من جوانبها إلى المفهومات الضمنية والمقتضيات اللازمة ، وإنما يُنص نصًا منطوقًا على كل جانب فيها .

أو في دلالة هذه الطريقة على علم الله - سبحانه - بطبيعة الكائن الإنساني ، وحاجته في تقرير هذه الحقيقة الكبيرة وصيانتها في حسه وتصوره من أية شبهة أو غبش إلى التعبير الدقيق عنها على ذلك النحو ، الذي يتجلى فيه القصد والعمد . ولله الحكمة البالغة ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير " .[٦]

في ظلال قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[٧]، يقول سيد : "إنه النهي عن الشرك والتحذير من

(١) سورة هود: الآية ٢٥- ٢٦.
(٢) سورة هود: الآية ٥٠.
(٣) سورة النحل: الآية ٥١.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٦٧.
(٥) سورة الأنعام : الآية ٧٩ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٥ -١٩٣٦ .
(٧) سورة الإسراء : الآية ٢٢-٢٣.

عاقبته ، والأمر عام ، ولكنه وجه إلى المفرد ليحس كل أحد أنه أمر خاص به.. ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ أمر بتوحيد المعبود بعد النهي عن الشرك ، أمرٌ في صورة قضاء ، فهو أمرٌ حتمي حتمية القضاء ، ولفظة ﴿ وَقَضَىٰ ﴾ تخلع على الأمر معنى التوكيد إلى جانب القصر الذي يفيده النفي والاستثناء ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ فتبدو في جو التعبير ظلال التوكيد والتشديد "[1]

في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[2] ، يقول سيد : " الأمر الأول بعبادة الله ، والنهي الثاني لتحريم عبادة أحد - معه - سواه ، نهيًا باتًا شاملًا، لكل أنواع المعبودات التي عرفتها البشرية :) وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا (شيئًا كائنًا ما كان، من مادة أو حيوان أو إنسان أو ملك أو شيطان، فكلها مما يدخل في مدلول كلمة شيء، عند إطلاق التعبير على هذا المنوال "[3].

في ظلال قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[4] ،

يقول سيد : " زيادة في توكيد المعنى - عن طريق النهي المباشر عن الشرك بعد الأمر المباشر بالإيمان "[5].

والآيات في هذا الباب كثيرة يصعب استقصاء كلام سيد حولها، نكتفي بالنماذج السابقة[6].

ثانيًا : الاستدلال بآيات الربوبية في الخلق والتدبير والملك والرعاية وغيرها :

حيث يقرر القرآن الكريم توحيد الربوبية ، ويبين أنه لا خالق إلا الله ، ولا متصرف في الكون إلا هو سبحانه وتعالى ويجعل ذلك دليلًا على وجوب إفراده سبحانه بالعبادة ، فيجعل الأول دليلًا على الثاني ، ويلزم المقرين بالربوبية الإقرار

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٢٠-٢٢٢١ .
(٢) سورة النساء : الآية ٣٦.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٦٥٩-٦٦٠ .
(٤) سورة يونس : الآية ١٠٥.
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٨٢٥ .
(٦) ينظر: في ظلال القرآن ٢/ ١١٠٩ ، ٤/ ٢٢٠٠ ، ٢٤٢١ .

بالألوهية .[١]

ويقف سيد – رحمه الله – كثيرًا في ظلال الآيات التي تتحدث عن الخلق والتدبير، ويعرض منهج القرآن الكريم في مواجهة المشركين باعترافهم لله بالخلق والتدبير ليجعل من ذلك دليلًا ملزمًا لوجوب إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة والتوجه، ويمكن عرض بعض النصوص ومنها :

١ – في ظلال قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[٢] ، يقول سيد : " إنه النداء إلى الناس كلهم لعبادة ربهم الذي خلقهم والذين من قبلهم ، ربهم الذي تفرد بالخلق، فوجب أن يتفرد بالعبادة ، والقرآن يقرر أن من حق الربوبية الخالصة عبادة الخالق وحده ، ويذكرهم بجعل الأرض فراشًا والسماء بناءً ، وإنزال الماء وإخراج الثمرات ... في معرض الدعوة إلى عبادة الخالق وحده، وينبههم إلى إنهم يعلمون هذا جيدًا، بالتالي فالشرك بعد هذا العلم تصرف لا يليق "[٣].

ويقول أيضًا : " إن تفرد الله – سبحانه وتعالى – بالخالق يفرده سبحانه بالملك، والمتفرد بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق ، فهو خالق خلقه ومالكهم ، وهو كذلك يرزقهم من ملكه الذي ليس لأحد شرك فيه ، فإذا تقررت هذه الحقائق .. الخلق والملك والرزق ، تقرر معها – ضرورةً وحتمًا – أن تكون الربوبية له سبحانه، فتكون له وحده خصائص الربوبية – وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يُخضع له ويطاع ، والنظام الذي يتجمع عليه العباد – وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها ، ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام "[٤].

"و المنهج القرآني يكثر من عرض حقيقة الرزق الذي يختص الله بمنحه للناس

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦-٣٧ .

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١-٢٢.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٦-٤٧ بتصرف .

(٤) المصدر السابق ٢/ ١١٦٣-١١٦٤ ، وينظر أيضًا : ٣/ ١٧٦٢ .

ليتخذ منها برهانا على ضرورة إفراد الله سبحانه بالحاكمية في حياة الناس.." (١).

وفي مقدمته لسورة الأنعام يقول : " تبدأ السورة بمواجهة المشركين الذين يتخذون مع الله ألهة أخرى، بينما دلائل التوحيد تجبههم وتواجههم وتحيط بهم وتطالعهم في الآفاق وفي أنفسهم، تبدأ بمواجهتهم بحقيقة الألوهية متجلية في لمسات عريضة تشمل الوجود كله، وتشمل وجودهم كله ، تبدأ في لمسات ثلاث ترسم مجالي الوجود الكبيرة على أقصى عمق واتساع ،﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ (٢) .

ثلاث آيات تذرع الوجود الكوني كله في الآية الأولى ، وتذرع الوجود الإنساني كله في الآية الثانية ثم تحيط الألوهية بالوجودين كليهما في الآية الثالثة .أي إعجاز! وأي روعة ! وأي شمول ! وأي إحاطة ! ، وأمام هذا الوجود الكوني الشاهد بوحدة الخالق ، والوجود الإنساني الشاهد بتدبيره ، والألوهية الحاكمة في السماوات والأرض العالمة بالسر والجهر والكسب يبدو شرك المشركين وافتراء المفترين،عجبًا منكرًا لا مكان له في نظام الكون، ولا في فطرة النفس ولا سند له في القلب والعقل" (٣) .

" وعرض حقيقة الألوهية فيما سبق، ليس لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي، ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق في الحياة الإنسانية ، من إسلامها بجملتها لله وحده ، لا تعدل به أحدًا .. والاستسلام لحاكمية الله وحده في كل شؤونها .. والآيات من (١٢ - ١٩) . تستهدف أيضًا إبراز حقيقة الألوهية، ممثلة في الملك والفاعلية ، وفي الرزق والكفالة ، وفي القدرة والقهر، وفي النفع والضر.. كل ذلك لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية والتوجه، وتوحيد الاستسلام والعبودية " (٤) .

(١) المصدر السابق ٣/ ١٢٢٣ ، وينظر أيضًا :٣/ ١٢٢٨،١٢٢٩ ، ١٢٩٧ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ١ - ٣ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٢٢-١٠٢٣ ، بتصرف يسير و٢/ ١٠٣٠-١٠٣٢ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ١٠٤٦-١٠٤٧ بتصرف و ٢/ ١٠٥٣.

" وبما أن المشركين لم يكونوا ينكرون وجود الله ، ولا أنه الخالق ، والرازق ، والمدبر ، إنما كانوا يتخذون الشركاء للزلفى ، أو يعتقدون أن لهم قدرة مع قدرة الله ، فهو هنا يأخذهم بما يعتقدونه هم أنفسهم، ليصحح لهم عن طريق إيقاظ الوعي والفطرة، ذلك الخلط والضلال، فيخاطبهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[1].

فهذه مقومات الحق والإيمان قائمة في اعتقادهم يعترفون بها ، ولكنهم ينكرون نتائجها اللازمة ، ولا يقومون بمقتضياتها الواجبة ، - أي عبادة الله وحده .." [2]

٣- يقول أيضًا : " وفي ختام سورة النمل... يقفهم السياق أمام مشاهد في صفحة الكون وفي أطواء النفس لا يملكون إنكار وجودها ، ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بجود الخالق الواحد المدبر القدير ، ويتوالى عرض هذه المشاهدات في إيقاعات مؤثرة ، تأخذ عليهم أقطار الحجة ، وأقطار المشاعر ، وهو يسألهم أسئلة متلاحقة : من خلق السموات والأرض ، من أنزل من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ؟ من جعل الأرض قرارًا ، وجعل خلالها أنهارًا ، وجعل له رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزًا ؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء؟ ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ ومن يهديكم في ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته ؟ ومن يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقكم من السماء والأرض ؟ وفي كل مرة يقرعهم : أإله مع الله ؟ .

وهم لا يملكون أن يدعوا هذه الدعوى ، لا يملكون أن يقولوا : أن إلهًا مع الله يفعل من هذا كله شيئًا وهم مع هذا يعبدون أربابا من دون الله !.... وهي جولة في الأفاق وفي أنفسهم لإثبات الوحدانية ونفي الشريك "[3] .

---

(١) سورة يونس : الآية ٣١-٣٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨١-١٧٨٣ بتصرف و ٥/ ٣٠٩٤ ، ٣١٧٧ ، ٣١٨٠ .

(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٦٥٤ - ٢٦٥٥.و ٢٦٦١ و ينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ٤٢ ، ١٥٣ ، ١٩٢ ، ٢٠٩ وما بعدها

ثالثًا : الاستدلال بشهادة الله لنفسه بهذا التوحيد وشهادة الملائكة وأولي العلم :

من الأدلة على توحيد الألوهية شهادة الله لنفسه بهذا التوحيد ، وشهادة ملائكته وأنبيائه ورسله له ، قال تعالى:﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1]، حيث تضمنت هذه الآية إثبات حقيقة التوحيد ، والرد على جميع طوائف الضلال فتضمنت أجلَّ شهادة وأعدلها وأصدقها، من أجل شاهد ، بأجل مشهود به ، كما تضمنت الأمر والإلزام بما دلت عليه من التوحيد ، ووجه استلزام شهادته سبحانه وتعالى بذلك - أي الأمر والإلزام - انه إذا شهد أنه لا إله إلا هو ، فقد أخبر وبين وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله ، وان إلهية ما سواه باطله فلا يستحق العبادة ، وهذا يفهمه المخاطب من النفي والإثبات[2] .

وقد أشار سيد إلى هذه الدليل على الألوهية في ظلال الآية السابقة حيث يقول: " هذه هي الحقيقة الأولى التي يقوم عليها التصور الاعتقادي في الإسلام ، حقيقة التوحيد: توحيد الألوهية ، وهي الحقيقة التي بدأت بها السورة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ وهي تستهدف إقرار حقيقة العقيدة الإسلامية من جهة، وجلاء الشبهات.. من جهة أخرى .

وشهادة الله - سبحانه - أنه لا إله إلا هو .. هي حسب كل من يؤمن بالله .. وقد يقال : إنه لا يكتفي بشهادة الله إلا من يؤمن بالله وأن من يؤمن بالله ، ليس في حاجة إلى هذه الشهادة ،ولكن واقع الأمر أن أهل الكتاب كانوا يؤمنون بالله ولكنهم في نفس الوقت يجعلون له ابنًا وشريكا ، بل إن المشركين أنفسهم كانوا يؤمنون بالله، ولكن الضلال كان يجيئهم من ناحية الشركاء والأنداد والأبناء والبنات! فإذا قرر لهؤلاء وهؤلاء أن الله - سبحانه - شهد أنه لا إله إلا هو ، فهذا مؤثر قوي في تصحيح تصوراتهم .

على أن الأمر - كما يبدو من متابعة السياق - أعمق من هذا وأدق ، فإن شهادة الله - سبحانه - بأنه لا إله إلا هو ، مسوقة هنا ليساق بعدها ما هو من مستلزماتها،

(١) سورة آل عمران: الآية.١٨

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤٣ -٤٨ بتصرف .

وهو أنه لا يقبل إذن من العباد إلا العبودية الخالصة له ، الممثلة في الإسلام بمعنى الاستسلام - لا اعتقادًا وشعورًا فحسب - ولكن كذلك عملا وطاعة وإتباعا للمنهج العملي الواقعي المتمثل في أحكام الكتاب ، ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمان يقولون : إنهم يؤمنون بالله ، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية، حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره ، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه، وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره، فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله، ولا تستقيم مع شهادة الله - سبحانه وتعالى - بأنه لا إله إلا هو .

وأما شهادة الملائكة وشهادة أولي العلم ، فهي متمثلة في طاعتهم لأوامر الله وحدها، والتلقي عن الله وحده ، والتسليم بكل ما يجيئهم من عنده بدون تشكك ولا جدال، متى ثبت لهم أنها من عنده ، وقد سبق في السورة بيان حال أولي العلم هؤلاء في قوله : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [1]، فهذه شهادة أولي العلم وشهادة الملائكة : تصديق وطاعة، وإتباع ، واستسلام ....ويرتب على هذه الحقيقة التي عاد لتوكيدها مرتين في الآية الواحدة، نتيجتها الطبيعية ، ألوهية واحدة ، فلا عبودية إلا لهذه الألوهية الواحدة"[2]، "وشهادة الله تعالى أكبر شهادة ، فهو الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين.. هو الذي لا شهادة بعد شهادته، ولا قول بعد قوله ، فإذا قال فقد انتهى القول، وقد قضي الأمر... وشهادة الله سبحانه تضمنها هذا القرآن ، الذي أوحاه إلى نبيه ﷺ لينذرهم به ، فهو حجة على من يبلغه ،لأنه يتضمن شهادة الله في هذه القضية الأساسية ، التي تقوم عليها الدنيا والآخرة ، ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنساني ضمنًا "[3].

رابعًا : الاستدلال بدليل التمانع والنظر العقلي :

المشهور عن المتكلمين أن دليل التمانع من أدلة تقرير توحيد الربوبية [4] ،

(١) سورة آل عمران: الآية ٧

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٨-٣٧٩ بتصرف يسير .

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٥٦ بتصرف يسير .

(٤) ينظر : الإرشاد للجويني ص ٤٩ ، ونهاية الإقدام للشهرستاني ص ٩١-٩٧ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨.

إلا أن بعض علماء أهل السُّنَّة يسوقون هذا الدليل لتقرير الألوهية أيضا، وهو ظاهر الآية الكريمة لمن تدبرها، فالله يقول: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

وقد أشار شارح الطحاوية إلى ظن بعض الطوائف أن دليل التمانع خاص بالربوبية، وغفلوا عن مضمون الآية، فإنه سبحانه وتعالى أخبر أنه لو كان فيهما إله غيره ولم يقل أرباب، وأن الآية تدل على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة، بل لا يكون إلا إله واحد، هو الله سبحانه وتعالى، لأن وجود أكثر من إله يستلزم فسادهما.. فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية.[2]

ويقف سيد- رحمه الله – عند هذه الآية وأمثالها ليقرر وجوب توحيد الله في العبادة والتوجه له بلا شريك:

١- ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[3]، يقول سيد: يجيء الإنكار على المشركين واستنكار دعواهم في الإلهة، ويعرض السياق دليل الوحدانية من المشهود في نظام الكون وناموسه الواحد الدال على المدبر الواحد..

والسؤال عن اتخاذهم آلهة هو سؤال استنكار للواقع منهم، وَوَصفُ هؤلاء الآلهة بأنهم ينشرون من الأرض أي يقيمون الأموات ويبعثونهم أحياء فيه تهكم بتلك الإلهة، لكونها فاقدة للصفة الأولى من صفات الإله، خلق الحياة وإعادتها ...ذلك منطق الواقع المشهود في الأرض، وهنالك الدليل الكوني المستمد من واقع الوجود: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾، فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعًا، وينسق بينها وبين حركاتها وحركة المجموع.

هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد، فلو تعددت الذوات

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢١-٢٢.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩-٤٠ بتصرف.

(٣) سورة الأنبياء: الآيات ٢١ - ٢٢.

لتعددت الإرادات والنواميس تبعًا لها ، ولانعدمت الوحدة والتناسق الكوني كله، ولوقع الاضطراب والفساد ، والفطرة السليمة تشهد بوحدة الناموس والإرادة التي أوجدته ، ووحده الخالق المدبر لهذا الكون الذي لا فساد في تكوينه وفي سيره ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ، وهم يصفونه بأن له شركاء ، تنزه الله عما يقولون، والوجود كله بنظامه وسلامته من الخلل والفساد يكذبهم ...

فالتوحيد هو قاعدة العقيدة ، منذ أن بعث الله الرسل للناس،لا تبديل فيها ولا تحويل ، توحيد الإله وتوحيد المعبود، فلا انفصال بين الألوهية والربوبية، ولا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادة ، قاعدة ثابتة ثبوت النواميس الكونية.." [١] .

٢- في ظلال قوله تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [٢] ، يقرر سيد : " أن مشركي العرب كانوا مضطربي العقيدة ، لا ينكرون الله ولا ينكرون أنه مالك السماوات والأرض ومدبرهما المسيطر عليهما ، ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهة مدعاة ، يقولون : إنهم يعبدونها لتقربهم من الله ، وينسبون له البنات سبحانه وتعالى عما يصفون .

فأخذهم بمسلماتهم التي يقرون بها ، ليصحح ذلك الاضطراب في العقيدة ، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذي تقود إليه مسلماتهم ، لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون .

وفي اللحظة المناسبة لتقرير حقيقة ما جاءهم به الرسول ﷺ من التوحيد، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك، بعد ذلك الجدل ، يجيء هذا التقرير في أساليب شتى:

- بالإضراب عن الجدل معهم ، وتقرير كذبهم الأكيد : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

- ثم يُفصِّل فيما هم كاذبون: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٣- ١٣٧٤ بتصرف .

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٩١-٩٢.

- ثم يأتي بالدليل الذي ينفي دعواهم، ويصور ما في عقيدة الشرك من سخف واستحالة : ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ ﴾ مستقلًا بما خلقه ، يصرفه حسب ناموس خاص، فيصبح لكل جزء من الكون ، أو لكل فريق من المخلوقات ناموس خاص. ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذي لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد، وتصريف وتدبير واحد.

وكل هذه الصور لا وجود لها في الكون، الذي تشهد وحده تكوينه بوحدة خالقه. ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ "[1] .

٣- في ظلال قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾[2]. يقرر سيد قطب- رحمه الله- أن القرآن الكريم جاء بالتوحيد ، وسلك إلى تقرير هذه العقيدة وإيضاحها طرقًا شتى ، وأساليب متنوعة ، ووسائل متعددة ﴿ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ .

فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والرجوع إلى الفطرة ومنطقها ، وإلى الآيات الكونية ودلائلها ولكنهم يزيدون نفورًا ، كلما سمعوا القرآن نفروا من العقيدة ، ومن القرآن ذاته خوفًا من أن يغلبهم على عقائدهم الباطلة ، عقائد الشرك والوهم.

وكما جاراهم في ادعاءاتهم في حكاية البنات ونسبتها إلى الله ليكشف عما فيها من تفكك وتهافت ، فهو يجاريهم في حكاية الآلهة المدعاة ، ليقرر أن هذه الآلهة لو وجدت فإنها ستحاول أن تتقرب إلى الله وأن تجد لها وسيلة إليه وسبيلًا ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [3].

ولو كما - يقول النحاة - حرف امتناع لامتناع ، فالقضية كلها ممتنعة ، وليس هنالك آلهة مع الله -كما يقولون- والآلهة التي يدعونها إن هي إلا خلق من خلق الله سواء كانت نجمًا أو كوكبًا ، إنسانًا أو حيوانًا ، نباتًا أو جمادًا ، وهذه كلها تتجه إلى الخالق حسب ناموس الفطرة الكونية ، وتخضع للإرادة التي تحكمها وتصرفها ، وتجد طريقها إلى الله عن طريق خضوعها لناموسه ﴿ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٧٨ - ٢٤٧٩ بتصرف .
(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٢-٤٣.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٢.

وذكر العرش هنا يوحي بالارتفاع والتسامي على هذه الخلائق التي يدعون أنها آلهة - مع الله - ، وهي تحت عرشه وليست معه ، ويعقب على ذلك بتنزيه الله في علاه - سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرا - "[1]

٤- ومن الأدلة العقلية أيضًا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[2] ،

يقول سيد - رحمه الله- : " والاستفهام عن حقيقة وجودهم هم أنفسهم ، وهي حقيقة قائمة لا مفر لهم من مواجهتها، ولا سبيل لهم إلى تفسيرها بغير ما يقوله القرآن فيها، من أن لهم خالقًا أوجدهم... فوجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً ، ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل . أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدّعوه ولا يدّعيه مخلوق ، وإذا كان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن أنهم جميعًا من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء ، فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة ، وهو منطق واضح بسيط "[3].

خامسًا : بيان بطلان ألوهية غير الله :

أوضح القرآن الكريم بطلان ألوهية ما عبد من دون الله تعالى من المعبودات ، سواء عُبدت بدعوى أنها أبناء أو بنات الله ، أو أن بينها وبينه نسبًا وقرابة ، أو أنها تقربهم إلى الله زلفى ، مبينًا عجز ما سوى الله ، من خلال ضرب الأمثال ، وطلب الموازنة بين هذه المعبودات وبين الحق سبحانه وتعالى ، ومن ذلك:

١- إبطال ألوهية ما عبد من دون الله تعالى ، وتشمل:

أ- إبطال ألوهية الملائكة بدعوى البنوة لله - سبحانه وتعالى علوًا كبيرًا - يقول سبحانه: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٣٠ بتصرف .
(٢) سورة الطور: الآية ٣٥.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٩-٣٤٠٠ بتصرف يسير .

مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١) .

يقول سيد : " ودعوى البنوة لله- سبحانه- اتخذت لها عدة صور في الجاهليات المختلفة ، فقد عرفت عند مشركي العرب في صورة بنوة الملائكة لله ، وعند مشركي اليهود في صورة بنوة العزيز لله ، وعند مشركي النصارى في صورة بنوة المسيح لله ، وكلها من انحرافات الجاهلية في شتى الصور والعصور .

والمفهوم أن الذي يعنيه السياق هنا هو دعوى العرب في بنوة الملائكة ، وهو يرد عليهم ببيان طبيعة الملائكة ، فهم ليسوا بنات لله -كما يزعمون - بل عباد مكرمون عند الله ، يعملون بأمره ولا يناقشون، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، خائفون مشفقون من خشيته ، لا يدعون الألوهية ، ولو ادعوها - جدلا - لكان جزاؤهم جزاء من يدعي الألوهية كائنًا من كان وهو جهنم ، وبهذا تبدو دعوى المشركين في صورتها هذه واهية مستنكرة " (٢).

وفي سورة الزخرف يستعرض منهج القرآن في معالجة أسطورة اتخاذ الملائكة آلهة بزعم أنها بنات الله ، حيث يحاصرهم ويواجه هذه الأسطورة من كل جانب ولا يبقي ثغره مفتوحةإلا وأخذها عليهم" (٣).

وفي سورة النجم يستعرض- سيد- الآيات التي ترد على المشركين في دعواهم ألوهية الملائكة وأنها بنات الله وتبين تناقضهم ، حيث كانوا يكرهون ولادة البنات، ومع ذلك لم يستحيوا أن يجعلوا الملائكة إناثًا وهم لا يعلمون عنهم شيئًا، وان ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله (٤).

ب- إبطال ألوهية المسيح -عليه السلام- :حيث قررالقرآن الكريم في آيات كثيرة عدم ألوهية المسيح وغيره من البشر، بأدلة عقلية يجابه بها المشركين منها :

- قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٦- ٢٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٤- ٢٣٧٥ بتصرف يسير .
(٣) المصدر السابق ٥/ ٣١٨٠- ٣١٨١ .
(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٤٠٨ - ٣٤٠٩ ، وانظر أيضًا : ٢٤٧٨/٤ .

﴿ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (١).

يقول سيد – رحمه الله–: " وأكل الطعام مسألة واقعية في حياة المسيح – عليه السلام – وأمه الصديقة وهي خصيصة من خصائص الأحياء الحادثين ، ودليل على بشرية المسيح وأمه – أو على ناسوته بتعبيرهم اللاهوتي – فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مراء فيها ، ولا يكون إلها من يحتاج إلى الطعام ليعيش، فالله حي بذاته، قائم بذاته، باق بذاته ، لا يحتاج ، ولا يدخل إلى ذاته – سبحانه – أو يخرج منها شيء حادث كالطعام . "(٢).

ج– إبطال ألوهية الكواكب والنجوم : وقد جاء ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ ﴾ (٣).

يقول سيد : " والمقصود بالنجم هنا نجم الشعرى ، وهو أحد النجوم التي كان لها شأن عند الفرس والعرب وقدماء المصريين على السواء وكان بعضهم يعبدها، فأشار الله إلى بطلان ألوهيتها بقوله: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ ﴾ ، حيث يوحي بأن النجم مهما كان عظيما فانه يهوي ويتغير مقامه ، فلا يليق أن يكون معبودًا ، فللمعبود الثبات والارتفاع والدوام (٤) .

ويصور القرآن بطلان ألوهية الكواكب أيضا في قصة إبراهيم– عليه السلام – ، ونظره إلى الكواكب وبيان زيف ألوهيتها لأنها تغيب وتأفل (٥) .

ومن الآيات الجامعة في باب إبطال أُلوهية غير الله سبحانه، قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (٦) .

يقول سيد " وينتهي هذا الدرس الذي بدأ بنفي فكرة الأبناء والشركاء ، واستطرد

(١) سورة المائدة: الآية ٧٥.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٤٥ .
(٣)سورة النجم: الآية ١.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٠٦ .
(٥) المصدر السابق ٢/ ١١٤٠– ١١٤١ .
(٦) سورة الإسراء: الآية ٥٦–٥٧.

إلى تفرد الله سبحانه بالاتجاه إليه ، وتفرده بالعلم والتصرف في مصائر العباد ، ينتهي بتحدي الذين يزعمون الشركاء ، يكشفوا عنهم الضر أو يحولوا عنهم العذاب .

ويقرر لهم أن من يدعونهم آلهة من الملائكة أو الجن أو الأنس، إن هم إلا خلق من خلق الله، يحاولون أن يجدوا طريقهم إلى الله ويتسابقون إلى رضاه، ويخافون عذابه.

وقد كان بعضهم يدعو عزيرًا ابن الله ويعبده، وبعضهم يدعو عيسى ابن الله ويعبده ، وبعضهم يدعو الملائكة بنات الله ويعبدهم ، وبعضهم يدعو غير هؤلاء ، فبين الله لهم أن هؤلاء جميعًا يتقربون إلى الله بالعبادة ويخشون عذابه ، فما أجدركم أن تتوجهوا إلى الله ، كما يتوجهون . وهكذا يختم ببيان تهافت عقائد الشرك في كل صورها، وتفرد الله سبحانه بالألوهية والعبادة والاتجاه .[1]

٢- بيان عبودية الكون وما فيه ومن فيه لله وحده :

يقرر القرآن الكريم في كثير من الآيات : " أن الدينونة لله وحده هي شأن الكون كله كما هي شأن الناس ، وأن الانحراف عن هذه القاعدة شذوذ وسفه وانحراف! "[2].

" والمنهج القرآني يكثر من الربط بين عبودية هذا الكون لله ، ودعوة البشر إلى الاتساق مع الكون الذي يعيشون فيه ، والإسلام لله الذي أسلم له الكون كله ، والإيقاع بهذه الحقيقة الكونية كفيل بأن يهز القلب البشري هزًا، وأن يستحثه من داخله على أن ينخرط في سلك العبادة المستسلمة، فلا يكون هو وحده نشازًا في نظام الوجود كله! - عليه السلام - "[3].

وفي "مقومات التصور الإسلامي" يقرر سيد - رحمه الله - حقيقة وحده الألوهية، ويبين منهج القرآن الكريم في عرض التوحيد و إبطال الشرك في عقائد مشركي العرب والوثنيات كلها وعقائد أهل الكتاب المحرفة [4] . ثم يعرض منهج القرآن الكريم في بيان عبودية الكون وما فيه ومن فيه لله سبحانه

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٢٣٥ بتصرف يسير

(٢) المصدر السابق ، ١/ ٣٨٤ .

(٣) المصدر السابق ،٣/ ١٣٠٧ وينظر : ٥/ ٢٥٤٨ .

(٤) مقومات التصور الإسلامي ص ١٠٨ وما بعدها .

وتعالى ، وان العبودية لله تشمل كل شيء وكل حي ، فلا يخرج عن العبودية لله سبحانه وتعالى شيء ولا حي في هذا الوجود .إنما يتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية الواحدة ، ويقف الكل من الألوهية الواحدة المتفردة موقف العبيد :

- إنها عبودية الكون المادي ممثلًا في أجرامه الفلكية الكبيرة : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾[1].

- وهي عبودية النجوم والكواكب والأشياء والأحياء في هذا الوجود المغيب منه والمشهود : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[2].

- وهي عبودية الخلائق العاقلة المكلفة بالكون:﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[3].

- عبودية الملائكة: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾[4] ، وعبودية الجن والأنس عامة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[5] ، وعبودية الرسل والأنبياء خاصة ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[6] ، عبودية الطائعين: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾[7] ، عبودية العصاة : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[8] .

---

(١) سورة فصلت: الآية ١١ .
(٢) سورة النحل : الآية ٤٨-٤٩.
(٣) سورة مريم : الآية ٩٣ .
(٤) سورة الأنبياء : الآية ٢٦.
(٥) سورة الذاريات : الآية ٥٦.
(٦) سورة ص : الآية ٤٥.
(٧) سورة الزمر: الآية ١٧ - ١٨ .
(٨) سورة الزمر: الآية ٥٣.

- كما أنها عبودية هذه الآلهة المدعاة، فكل ما يزعمون أنه إله فهو عبد لله، وهو يرجو لنفسه من الله النجاة، وهو يبرأ من إدعاء الألوهية، ويتبرأ من تعبيد الناس له ومن عبادتهم إياه: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[1]. ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[2].

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾[3].

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾[4].

إنها العبودية الشاملة أمام الألوهية المتفردة، مفرق الطريق، ومن ثم تنال هذه العناية الكبرى.. وفي مواجهة هذا البيان الشامل، الكاشف، المنير تبدو عبادة الشركاء مع الله سبحانه وتعالى، وتقديم القرابين لها، وإشراكها في الأموال والأبناء - أيًا كان هؤلاء الشركاء من البشر أو من الجن، أو من الأحياء والأشياء - سخفًا لا يملك الدفاع عنه اشد المتحمسين له "[5].

٣- بيان عجز ما يُعبد من دون الله:

من أساليب القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك بيان عجز ما يتخذه الناس من آلهة سواء كانت ملائكة أو أنبياء أو جمادًا، فالكل عاجزون لأنهم مخلقون مربوبون، والآيات في هذا كثيرة جدًا، وقد وقف سيد -رحمه الله- عند هذا الأسلوب كثيرًا من خلال أربعة محاور وهي:

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٧

(٢) سورة سبأ: الآية ٤٠-٤١.

(٣) سورة المائدة: الآية ١١٦.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٥) مقومات التصور الإسلامي ص (١٢-١٣٠ بتصرف، ص ٣١٧.

الأول : بيان عجز ما سوى الله سبحانه وتعالى ؛ ومن ذلك

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [١] يقول سيد - رحمه الله - : " ويختار التعبير بكلمة " ما " بدل كلمة " من " في هذا الموضع قصدًا ، ليدرج " المخلوقات " التي تُعبد كلها - بما فيها من العقلاء - في سلك واحد لأنه يشير إلى ماهيتها المخلوقة الحادثة ،البعيدة عن حقيقة الألوهية ، فيدخل عيسى ، ويدخل روح القدس ، وتدخل مريم ، كلهم في " ما " لأنهم بماهيتهم من خلق الله، ويلقي هذا التعبير ظله كذلك في هذا المقام فيبعد أن يكون أحدًا مستحق للعبادة وهو لا يملك ضرًا ولا نفعًا " [٢].

- وقوله تعالى ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [٣]، يقول سيد : " فهذه " الواو " و" النون " تشير إلى أن من بين هذه الآلهة على الأقل بشرًا من " العقلاء " الذين يُعبر عنهم بضمير "العاقل"، والعرب في وثنيتهم لم يكونوا يشركون بآلهة من البشر في تقديم الشعائر التعبدية لهم ، إنما كان شركهم بتلقي الشعائر والأحكام ، وهذا شرك يسوي القران الكريم بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواء ... والمقصود تنبيه أولئك الذين كانوا يخاطبون بهذا القران أول مرة إلى سخف ما هم عليه من الشرك واتخاذ تلك الآلهة التي لا تخلق شيئًا بل تُخلق ، ولا تنصر عبادها بل لا تملك نصرًا ، سواء كانت من البشر أو من غيرهم فهي كلها لا تخلق ولا تنصر ..

ثم يواجههم ويبين سخف وثنيتهم في ميزان العقل ويبين سخف ما يزاولون من الشرك بالآلهة التي ليس لها أرجل تمشي بها ولا أيدي تبطش بها ولا أعين تبصر بها ولا آذان تسمع بها ، فهذه جوارح تتوافر لهم فكيف يعبدون ما هو دونهم من هذه الأحجار الهامدة ؟ .

فأما ما يرمزون إليه بهذه الأصنام من الملائكة حينًا ، ومن الآباء والأجداد حينًا، فهم عباد أمثالهم من خلق الله مثلهم لا يخلقون شيء وهم يخلقون، ولا يملكون لهم

---

(١) سورة المائدة: الآية ٧٦.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٤٦ .

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٩١-١٩٢.

نصرًا ولا أنفسهم ينصرون" [١].

" وكما أن ما يعبد من دون الله عاجز عن الخلق والضر والنفع فإنهم عاجزون أيضًا عن إجابة دعاء من يدعونهم من دون الله " [٢] ، " وهو عاجزون عن رزقهم أيضًا "[٣].

- وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [٤]، يقول سيد : " وهكذا يجرد آلهتهم المدعاة من كل خصائص الألوهية ، فهم لا يخلقون شيئًا ، والله خالق كل شيء .. ولا يملكون لأنفسهم فضلًا عن أن يملكوا لعبادهم ضرًا ولا نفعًا ، والذي لا يملك لنفسه النفع قد يسهل عليه الضر ، ولكن حتى هذا لا يملكونه .

ثم يرتقي إلى الخصائص التي لا يقدر عليها إلا الله ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ ، فلا إماتة حي ولا إنشاء حياة ولا إعادتها داخل مقدورهم ، فماذا لهم بعد ذلك من خصائص الألوهية وما شبهة أولئك المشركين في اتخاذهم آلهة "[٥].

" ولم ينفِ عن آلهتهم المدعاة أن تكون قادرة على عزهم ونصرهم ونفعهم وضرهم في هذه الحياة الدنيا وحدها ، ولكن عرض لهم حياة الآخرة ، وجريرة هذه الآلهة عليهم فيها، فضلًا على أنها لن تقدم لهم عونًا ! سواء كانت هذه الآلهة مما اتخذوه للعبادة والتأله ، أو ممن اتخذوهم أربابا من البشر يتلقون منهم الشرائع والأحكام والتقاليد والأوضاع من الأحياء منهم ومن الموتى الذين يتبعون ما سنوه لهم.

وكذلك يتكرر في القران الكريم الأمر بتحدي المشركين عن نصيب آلهتهم المدعاة في الخلق أو في الرزق أو في التأثير في نواميس الكون وفي حياة البشر في أيّة صورة من الصور ، ذلك أنه إذا انتفى أن يكون لأحد من هذه العباد دور في

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٤١٤-١٤١٥ بتصرف ، وينظر أيضًا ٣/ ١٨٢٥ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٠٥١، ٥/ ٣٢٥٥.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٢١٨٣، ٢٣٨٠، ٥/ ٢٧٢٨، ٢٧٧٢.
(٤) سورة الفرقان: الآية ٣.
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٥٠ بتصرف يسير .

الخلق أو في الرزق أو التأثير في نواميس الكون أو حياة البشر على الإطلاق ، بعد ما انتفى أن يكون لها عند الله شفاعة أو قبول في الدنيا أو في الآخرة فقد ظهر السخف وتجلت الحماقة في اتخاذهم أربابا سواء بتقديم الشعائر والقرابين ، أو في الشرائع والقوانين " [1] .

الثاني :انتفاء صفات الكمال عن ما سوى الله :

فمن الأدلة التي ساقها القران الكريم لتقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك بالله تعالى ، الاستدلال بانفراده – عز وجل – بصفات الكمال التي مدح بها نفسه وتعرف بها إلى عباده ليعرفوا كماله وعظمته ، وكثيرًا ما يذكرها عند ذكر آلهة المشركين ، التي عبدوها من دون الله ، وجعلوها شركاء له فيذكر سبحانه وتعالى من صفات كماله وعلوه على عرشه، وتكلمه وتكليمه ، وإحاطة علمه ، ونفوذ مشيئته ، وقدرته المطلقة ، وتدبيره ، ما هو منتفٍ عن آلهتهم فيكون ذلك من أول الدليل على بطلان إلاهتها ، وفساد عبادتها من دون الله ، والآيات في هذا الباب كثيرة جدًا .

يقول سيد : " ثم لما عرَّف الناس بصفات الله الحق الذي يستحق أن يكون ربًا للعالمين وكشف لهم عن تجرد آلهتهم كلها من هذه الصفات – في عالم الواقع والحقيقة – أصبح مفهومًا أن الله سبحانه هو المتفرد بخصائص الألوهية ، وأن كل شيء وكل حي داخل في نطاق العبودية له سبحانه بلا شريك ونطاق الدينونة له سبحانه بلا منازع ، وقد جعل القران ينص على هذا نصًا : فعن وحدانية الله سبحانه وتعالى ذاته وصفاته وخصائصه وسلطانه، وتجرد الشركاء منها جميعا ، ترد أمثال هذه النصوص الصريحة:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [2].

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ

(١) مقومات التصور الإسلامي ص١٢٢- ١٢٤ بتصرف ، وينظر أيضًا :في ظلال القرآن ٤/ ١٩٨٩، ٥/ ٢٩٣٥، ٣٠٥٣، ٢٣٧٣ .

(٢) سورة الإخلاص.

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (١).

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾(٢)" (٣).

والقران كثيرًا ما يقرر تفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق(٤)، وتفرده بالعلم والتصرف في مصائر العباد (٥)، وتفرده بالسلطان والقهر(٦)، وتفرده بالحياة والوحدانية (٧)، ونحوها من صفات الكمال.

ومن أجمع الآيات في هذا الباب قوله سبحانه وتعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾(٨)، يقول سيد: " فلا ربوبية لغيره، ولا شريك معه في هذا الكون الكبير، فهو الواحد الذي يعبد في هذا الوجود والذي تتجه إليه الفطرة والقلوب هل تعلم له سميًا؟ هل تعرف له نظيرًا؟ تعالى الله عن السمي والنظير"(٩).

الثالث: طلب الموازنة بين الله عز وجل وبين ما يعبد من دونه:

ومن الأساليب التي جاءت أيضًا في القران الكريم لتقرير توحيد الألوهية، وإبطال الشرك وبيان قبحه، وضلال وسفه من يقع فيه، ما ذكره الله تعالى من التشنيع بحال المشركين ورميهم بالضلال والسفه حيث رضوا لأنفسهم عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا، ولفت انتباه المشركين إلى ما وصلوا إليه من السفه والضلال من خلال طلب الموازنة بينه سبحانه وبين ما يعبدون من

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.
(٢) سورة غافر: الآية ١٤-١٦.
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ٢٦ بتصرف يسير
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٥٢، ٥/ ٢٥٥٠، ٣٠٩٤.
(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٥.
(٦) المصدر السابق ٤/ ١٩٨٩.
(٧) المصدر السابق ٥/ ٣٠٩٤.
(٨) سورة مريم: الآية ٦٥.
(٩) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣١٥.

دونه، في آيات كثيرة منها:

- قوله سبحانه و تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (١).

يقول سيد : " يبتدئ سبحانه بسؤال لا يحتمل إلا إجابة واحدة ، يستنكر به أن يشركوا بالله هذه الآلهة المدعاة ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ، وما يشركون أصنام وأوثان، أو ملائكة وجن، أو خلق من خلق الله على أية حال لا يرتقي أن يكون شبيها بالله -سبحانه - فضلًا على أن يكون خيرًا منه، ولا يخطر على قلب عاقل أن يعقد مقارنه أو موازنة. ومن ثم يبدو هذا السؤال بهذه الصيغة وكأنه تهكم محض ، وتوبيخ صرف، لأنه غير قابل أن يوجه على سبيل الجد، أو أن يطلب عنه جواب، ومن ثم يعدل عنه إلى سؤال أخر، مستمد من واقع هذا الكون حولهم ومن مشاهده التي يرونها بأعينهم :

* ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٢) "(٣).

* قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٤).

يقول سيد : " وهذه الأمور المسئول عنها من إعادة الخلق وهدايتهم إلى الحق، ليست من مسلمات اعتقادهم كالأولى- يقصد بذلك ما جاء في سياق الآيات التي قبلها من سؤال الله للمشركين عمّن يرزقهم ويحيي ويدبر الأمر وإجابتهم بأنه الله- لكنه يوجه إليهم فيها السؤال ارتكانا على مسلماتهم فهي من مقتضياتها بشيء

(١) سورة النمل: الآية ٥٩.
(٢) سورة النمل : الآية ٦٠.
(٣) في ظلال القران ٥/ ٢٦٥٥.
(٤) سورة يونس : الآية ٣٤-٣٥ .

من التفكر والتدبر، ثم لا يطلب إليهم الجواب، إنما يقرره لهم اعتمادًا على وضوح النتائج بعد تسليمهم بالمقدمات....

﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ ﴾ ؟ والجواب مقرر فالذي يهدي الناس إلى الحق أولى بالإتباع ، ممن لا يهتدي هو بنفسه إلا إن يهديه غيره ، وهذا ينطبق على الكل ، سواء كان المعبودون حجارة أو أشجارا أو كواكب ، أو كانوا من البشر، بما في ذلك عيسى -عليه السلام- ، ومن عدا عيسى -عليه السلام- أولى بانطباق هذه الحقيقة عليه: ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ، ثم يقرر أن شركهم بالله إنما يقوم على الظن، وأنه لا يستند إلى يقين أبدا "[1] .

الرابع : ضرب الأمثال :

وأسلوب ضرب الأمثال من الأساليب التي جاءت في القران الكريم لبيان الحقائق والمعاني الخفية وإيضاحها ، وكذا لتقريب المراد وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع، واستثارة العقل نحو التفكير الصحيح والقياس السليم ، وقد ذكر علماء البلاغة للأمثال فوائد كثيرة [2] .

وقد أشادت آيات القران الكريم بهذا الأسلوب وبينت الحكمة منه، قال سبحانه : ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [3]. وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [4].

وجاءت أمثله كثيرة في القران الكريم لتقرير توحيد الألوهية وبطلان الشرك بالله ، والرد على المشركين في تسويتهم للمخلوق بالخالق بالعبادة والطاعة ، وبيان ضعف وعجز ما سواه سبحانه ، وبالتالي بطلان ألوهيته ما سواه سبحانه ، وقد وقف سيد – رحمه الله – عند كثير من الأمثلة القرآنية في هذا الباب منها :

– قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٣٨ – ١٧٨٤ .بتصرف ،وينظر : مقومات التصور الإسلامي ص١٢٣، ١٤٢.
(٢) ينظر: أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، مطبعة الاستقامة ،القاهرة، ب.ت،ص ١٢٨-١٣٠.
(٣) سورة إبراهيم : الآية ٢٥ .
(٤) سورة العنكبوت : الآية ٤٣.

مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[1].

يقول سيد - رحمه الله -: " إعلانًا مدويًا عامًا للناس جميعًا، يعلن عن ضعف الآلهة المدعاة، الآلهة كلها التي يتخذها الناس من دون الله، ومن بينها تلك الآلهة التي يستنصر بها أولئك الظالمون، ويركن إليها أولئك الغاشمون، يعلن عن هذا الضعف في صورة مثل معروض للأسماع والأبصار، مصور في مشهد شاخص متحرك، تتأمله العيونُ والقلوب، مشهد يرسم الضعف المزري ويمثله أبرع تمثيل، إنه النداء العام، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ فإذا تجمع الناس على النداء أعلن لهم أنهم أمام مثل عام يضرب، لا حالة خاصة، ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾. هذا المثل يضع قاعدة، ويقرر حقيقة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة، من أصنام وأوثان، ومن أشخاص وقيم وأوضاع، تستنصرون بها من دون الله، وتستعينون بقوتها وتطلبون منها النصر والجاه.. ﴿ كلهم لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾.. والذباب صغير حقير، ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون ولو اجتمعوا وتساندوا على خلق هذا الذباب الصغير الحقير!، وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل، لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز سر الحياة. فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل، ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل! دون أن يخل هذا بالحقيقة في التعبير، وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب!.

ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾، والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه، سواء كانت أصنامًا أو أوثانًا أو أشخاصًا! وكم من عزيز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده، وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير، وهو في الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض ويسلب

---

(١) سورة الحج: الآية ٧٣-٧٤.

أغلى النفائس: يسلب العيون والجوارح ، وقد يسلب الحياة والأرواح .. إنه يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسنتاريا والرمد .. ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير! ، ويختم ذلك المثل المصور الموحي بهذا التعقيب ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال ، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب وفي أنسب الظروف ، والمشاعر تفيض بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة يندد بسوء تقديرهم لله ، ويعرض قوة الله الحق الحقيق بأنه إله ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ ما قدروا الله حق قدره ، وهم يشركون به تلك الآلهة الكليلة العاجزة التي لا تخلق ذبابًا ولو تجمعت له ، بل لا تستنقذ ما يسلبها الذباب إياه ! ، ما قدروا الله حق قدره وهم يرون آثار قدرته وبدائع مخلوقاته، ثم يشركون به من لا يستطيعون خلق الذباب الحقير! ، ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ ، وهم يستعينون بتلك الآلهة العاجزة الكليلة عن استنقاذ ما يسلبها إياه الذباب ، ويَدَعُون الله القوي العزيز "[1] .

- قوله تعالى :﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2].

يقول سيد - رحمه الله - : "ضرب هذا المثل لمن كانوا يتخذون من دون الله شركاء خلقًا من خلقه، جنًا أو ملائكة أو أصنامًا وأشجارًا ، وهم لا يرتضون أن يشاركهم مواليهم في شيء مما تحت أيديهم من مال ، ولا يسوون عبيدهم بأنفسهم في شيء من الإعتبار ، فيبدو أمرهم عجبًا ، يجعلون لله شركاء من عبيده وهو الخالق الرازق وحده ، ويأنفون أن يجعلوا لأنفسهم من عبيدهم شركاء في مالهم . ومالهم ليس من خلقهم إنما هو من رزق الله ، وهو تناقض عجيب في التصور والتقدير، وإذا لم يكن شيء من هذا يقع فكيف ترضونه في حق الله وله المثل الأعلى؟ "[3].

- قوله تعالى: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٤٣-٢٤٤٤ بتصرف يسير .
(٢) سورة الروم : الآية ٢٨ .
(٣) في ظلال القران ٥/ ٢٧٦٦ بتصرف يسير

فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)، يقول سيد : " إنما يريد الله من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يجتنبوا الزور كله ، وأن يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص : ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾، ثم يرسم النص مشهدًا عنيفًا يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد ، فيهوي إلى درك الشرك ، فإذا هو ضائع ذاهب بددًا كأن لم يكن من قبل أبدًا ، إنه مشهد الهوي من شاهق ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، وفي مثل لمح البصر يتمزق ﴿ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ ، أو تقذف به الريح بعيدًا عن الأنظار ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ في هوة ليس لها قرار! وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله ، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء ، إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها ، قاعدة التوحيد " (٢).

- قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ (٣).

يقول سيد - : " وإنه لعجيب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد ، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقًا وما هو بقادر في يوم من الأيام ، ولا في حال من الأحوال . ويدعون الله الخالق الرازق، وآلاؤه بين أيديهم لا يملكون إنكارها، ثم يجعلون لله الأشباه والأمثال ! ثم يضرب لهم مثلين للسيد المالك الرازق ،وللمملوك العاجز الذي لا يملك ولا يكسب . لتقريب الحقيقة الكبرى التي غفلوا عنها حقيقة أن ليس لله مثال ، وما يجوز أن يسووا في العبادة بين الله وأحد من خلقه وكلهم لهم عبيد .

- والمثل الأول مأخوذ من واقعهم ، فقد كان لهم عبيد مملوكون، لا يملكون شيئًا ولا يقدرون على شيء ، وهم لا يسوون بين العبد المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف ، فكيف يسوون بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد أو شيء مما خلق ، وكل مخلوقاته له عبيد؟ .

(١) سورة الحج : الآية ٣١ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٢١ بتصرف يسير .
(٣) سورة النحل : الآية ٧٥-٧٦ .

- والمثل الثاني يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذي لا يدري ولا يعود بخير ، والرجل القوي المتكلم الآمر بالعدل ، العامل المستقيم على طريق الخير. ولا يسوي عاقل بين هذا وذاك ، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر ، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر بالمعروف ، الهادي إلى الصراط المستقيم؟ "[١] .

- قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[٢] ، يقول سيد - رحمه الله -: "يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضًا فيه وهو بينهم موزع، ولكل منهم فيه توجيه ، ولكل منهم عليه تكليف، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه! وعبد يملكه سيد واحد ، وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح ، إنهما لا يستويان. وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال "[٣].

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[٤] .

يقول سيد : "هذا الإيقاع القوي بحقيقة الألوهية وخصائصها، وباستنكار الشرك والعودة إليه بعد الهدى ، وبمشهد الذي يرجع القهقرى مرتدًا عن دين الله ، وحيرته في التيه بلا اتجاه، وبتقرير أن هدى الله وحده هو الهدى... وأنما عليه المشركون من دعوة غير الله والاستعانة به وإسلام مقادهم لهؤلاء الذين يدعونهم من دونه ، وهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًا ، سواء كان ما يدعونه وثنًا أو صنمًا ، حجرًا أو شجرًا ، روحًا أم ملكًا ، شيطانًا أم إنسانًا ...هو سخف يرفضه العقل البشري ذاته متى عرض عليه في النور ، ذلك لأنهم كلهم سواء في أنهم لا ينفعون شيئًا ولا يضرون ، فهم أعجز من النفع والضر ، فدعوتهم من دون الله ، وعبادتهم والاستعانة بهم ،

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٨٣- ٢١٨٤ بتصرف يسير .
(٢) سورة الزمر : الآية ٢٩ .
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٤٩بتصرف يسير .
(٤) سورة الأنعام : الآية ٧١ .

والخضوع لهم سخف يرفضه العقل البشري ، ولكن القرآن الكريم يعرضه في مشهد شاخص متحرك يرسم الضلالة والحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد ، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد ، والآلهة المتعددة من العبيد! "[1]

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[2].

يقول سيد : " إن هنالك قوة واحدة هي قوة الله ، وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن ، من تعلق به أو احتمى فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتمي ببيت من خيوط واهية فهي وما تحتمي به سواء إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود ، الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحيانًا ، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل في أيديهم جميع الموازين ، ولا يعرفون إلى أين يتوجهون ، ماذا يأخذون وماذا يدعون؟ "[3] .

فهذه الأمثلة وغيرها جاءت في معرض تقرير أُلوهية الله وإبطال إشراك غيره معه ، وتصوير ضعف وعجز ما سواه ، وحال من يشرك به سبحانه ، وكل ذلك في معرض إبطال ألوهية ما سوى الله سبحانه وتعالى .

سادسًا: الاستدلال بالفطرة :

إن التوحيد هو الأصل في البشر فطرة وتاريخًا ، فكل مولود يولد مفطورًا على الإيمان بالله والاستعداد لقبول العقائد الصحيحة ، ولو ترك من غير مؤثر خارجي لما كان إلا موحدا مستسلمًا لله ، وهذا من لوازم الفطرة ، بحيث أصبح قبح الشرك معلوما في الفطرة السليمة ، ولو لم يرد به شرع ، فكيف وقد جاء الشرع لتقرير الفطرة ، وبهذا تكون الفطرة من أهم الحجج التي أقامها الله على المشركين لإبطال ما هم عليه من الشرك ، من خلال محاجتهم بما هو مستقر في فطرهم كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٣١-١٣٣٢ بتصرف .
(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤١-٤٣ .
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٣٦- ٢٧٣٧ بتصرف وينظر : أيضًا ٤/ ٢٠٥١.

لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[١] .

يقول سيد- رحمه الله – : " لما كان الذي يدعوهم إليه رسلهم هو الاعتقاد بألوهية الله وحده وربوبيته للبشر بلا شريك من عباده، فإن الشك في هذه الحقيقة الناطقة التي تدركها الفطرة وتدل عليها آيات الله المبثوثة في ظاهر الكون المتجلية في صفحاته ، يبدو مستنكرًا قبيحًا ، وقد استنكر الرسل هذا الشك ، والسماوات والأرض شاهدان "[٢].

ولما كانت الفطرة الإنسانية تشعر بحاجتها وفقرها إلى ربها سبحانه ، وذلك نابع من إقرارها بوجوده ووحدانيته وقدرته دون سواه ، فإنا نرى العنصر البشري عامة، مؤمنا بالله كان أو جاحدًا إذا ألَّم به خطبٌ عظيم ، واجتمعت عليه الأحداث وشعر بالعجز سرعان ما يتوجه إلى الله وحده ، وان كان يشرك معه غيرة ، وهذا دليل على بطلان الشرك بالخالق سبحانه وتعالى .

لهذا نجد الله– سبحانه – يستدل به على المشركين في أكثر من أيه في القرآن الكريم من ذلك: – قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[٣] .

يقول سيد – رحمه الله –: " يحاكمهم إلى فطرتهم التي تعرف حقيقة الألوهية، وتلتجئ إلى إلهها الحق في ساعة الشدة ، ويرسم لهم هذه الفطرة أمام الهول والكرب، وكيف يخالفون عنها في السر والرخاء ، إنها تجربة يعرفها كل من وقع في ضيقة ، أو رأى المكروبين في لحظة الضيق ، وظلمات البر والبحر كثيرة .. فالمتاهة ظلام ، والخطر ظلام ، والغيب الذي ينتظر الخلق في البر والبحر حجاب ، وحيثما وقع الناس في ظلمة من ظلمات البر والبحر لم يجدوا في أنفسهم إلا الله يدعونه متضرعين أو يناجونه صامتين ، إن الفطرة تتعرى حينئذ من الركام ، فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها ، حقيقة الألوهية الواحدة ، وتتجه إلى الله الحق بلا شريك، لأنها تدرك حينئذ سخافة

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ١٠.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٩٠ وينظر : ٣/ ١٣٠٧، ١٤٩٩، ١٧٦٦ ، ٤/ ١٩٨٩ ، ٥/ ٣٠٣٧ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٦٣–٦٤ .

فكرة الشرك، وتدرك انعدام الشريك! ويبذل المكذبون الوعود، ﴿لَئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ والله سبحانه يقول لرسوله ﷺ ليذكرهم بحقيقة الأمر: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾، فليس هنالك غيره يستجيب ويقدر على دفع الكروب، ثم ليذكرهم بتصرفهم المنكر العجيب: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾" [1].

- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [2].

يقول سيد: " لقد أمر الله إلا يتخذ الناس إلهين اثنين، إنما هو إله واحد لا ثاني له، ويأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين، ويتبع النهي بالقصر إنما هو إله واحد. ويعقب على النهي والقصر بقصر أخر ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ دون سواي بلا شبيه أو نظير. ويذكر الرهبة زيادة في التحذير، ذلك أنها القضية الأساسية في العقيدة كلها، لا تقوم إلا بها، ولا توجد إلا بوجودها في النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض، إنما هو إله واحد، وإنما هو كذلك مالك واحد ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ودائن واحد ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي: وأصلًا منذ ما وجد الدين، فلا دين إلا دينه، ومنعم واحد: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ وفطرتكم تلجأ إليه وحده ساعة العسرة والضيق، وتنتفي عنها أوهام الشرك والوثنية فلا تتوجه إلا إليه دون شريك ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ وتصرخون لينجيكم مما أنتم فيه، وهكذا يتفرد سبحانه وتعالى بالألوهية والملك والدين والنعمة والتوجه، وتشهد فطرة البشر بهذا كله حين يصهرها الضر وينفض عنها أوشاب الشرك ومع هذا فإن فريقا من البشر يشركون بالله بعد توحيده حالما ينجيهم من الضر المحيق! فينتهوا إلى الكفر بنعمة الله عليهم، وبالهدى الذي آتاهم ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ هذا النموذج، نموذج متكرر في البشرية، ففي الضيق تتوجه القلوب إلى الله، لأنها تشعر بالفطرة ألا عاصم لها سواه، وفي الفرج

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٣-١١٢٤ بتصرف يسير.

(٢) سورة النحل: الآية ٥١-٥٥.

تتلهى بالنعمة والمتاع ، فتضعف صلتها بالله ، وتزيغ عنه ألوانا من الزيغ تبدو في الشرك به، وتبدو في صور شتى من تأليه قيم وأوضاع ولو لم تدع باسم الإله". (١)

" إن فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسه الضر، ويسقط عنها الركام، وتزول عنها الحجب ، وتتكشف عنها الأوهام، فتتجه إلى ربها ، وتنيب إليه وحده، وهي تدرك أنه لا يكشف الضر غيره . وتعلم كذب ما تدعي من شركاء أو شفعاء ، أما حين يذهب الضر ويأتي الرخاء ، ويخوله الله نعمة منه ، ويرفع عنه البلاء ، فإن هذا الإنسان الذي تعرت فطرته عند مس الضر يعود فيضع عليها الركام وينسى تضرعه وتوحيده لربه وتطلعه إليه في محنته وحده حين لم يكن غيره يملك أن يدفع عنه محنته، ينسي هذا كله ويذهب يجعل لله أندادًا ، إما آلهة يعبدها كما كان في جاهليته الأولى، وإما قيما وأشخاصًا وأوضاعًا يجعل لها في نفسه شركة مع الله ، كما يفعل في جاهلياته الكثيرة! فإذا هو يعبد شهواته وميوله ومطامعه ومخاوفه وماله وأولاده وحكامه وكبراءه كما يعبد الله أو أخلص عبادة ، ويحبها كما يحب الله أو أشد حبًا! والشرك ألوان، فيها الخفي الذي لا يحسبه الناس شركًا ، لأنه لا يأخذ شكل الشرك المعروف وإنما هو من الشرك في الصميم" (٢).

سابعًا : بيان نهاية الشرك وخاتمة أهله وما عبد من دون الله سبحانه وتعالى :

من الأدلة أيضًا التي جاءت في القرآن الكريم لتقرير توحيد الألوهية "العبادة" وبطلان الشرك بالله سبحانه، الاستدلال ببيان عاقبة الشرك والواقعين فيه في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فقد ذكر الله تعالى قصة الصراع بين التوحيد والشرك ممثلًا بالصراع بين الرسل وأقوامهم ، واخبر في نهاية كل قصة عن نهاية المشركين والمعاندين وسوء مصيرهم بسبب إشراكهم بالله ، جاعلًا من ذلك دليلًا على بطلان الشرك وقبحه (٣).

وأما في الآخرة فقد ذكر الله في كثير من الآيات عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله وصَّور ما يكون يوم القيامة بين العابدين والمعبودين ، وبين الأتباع والمتبوعين،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٧٦-٢١٧٧ بتصرف يسير .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٤١ ، وينظر أيضا : ٣/ ١٧٦٦، ١٧٧٣ ، ٤/ ٢٢٤٠ .
(٣) المصدر السابق (٤/ ٢٤٢٩ وما بعدها .

وتنصل المعبودين من جناية العابدين ومن ذلك :

- قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[1].

يقول سيد : " وكأنما هم اللحظة في ساحة العرض، يردون جهنم هم وآلهتهم المدعاة ، وكأنما هم يُقذفون فيها قذفًا بلا رفق ولا أناة ، وكأنما تحصب بهم حصبًا كما تحصب بالنواة! وعندئذ يوجه إليهم البرهان على كذب ما يدعون لها من كونها آلهة ..من هذا الواقع المشهود : ﴿ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾[2].

- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[3].

يقول سيد : " ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم في ساحة الحشر ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله ، وأنهم آلهة يعبدونهم مع الله أو من دون الله، فإذا هم يشيرون إليهم ويقولون! ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ ﴾، ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل ، فإذا هم يجبهون عبادهم بالكذب في تقرير وتوكيد ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئًا يعتمدون عليه في موقفهم العصيب [4]

ويذكر القرآن مواقف متعددة تظهر حال المشركين يوم القيامة مع شركائهم تبدأ من تنصلهم من عبادتهم إياهم وتنتهي بتنصل الشيطان منهم في النار . [5]

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٩٨-٩٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٩ .

(٣) سورة النحل : الآية ٨٦-٨٧ .

(٤) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٧٨- ٢١٨٨ بتصرف .

(٥) ينظر :في ظلال القرآن ١/ ١٥٤ و ٢/ ١٠٠٠ - ١٠٠٢ و٣/ ١٢٨٩ ،١٧٨٠ و٤/ ٢٠٩٥-٢٠٩٨ و٥/ ٢٩٠٨-٢٩١١ .

المبحث الثالث
خصائص الألوهية ومجالاتها

يرى سيد قطب- رحمه الله - أن الألوهية تتضمن ثلاثة مجالات يطلق عليها اسم خصائص الألوهية - غالبًا - وهي تشكل بمجموعها حقيقة الدين الإسلامي ، ومعنى شهادة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ، وهذه المجالات أو الخصائص مترابطة ينشأ بعضها عن بعض ، ولا يقبل واحد منها إلا منضمًا إليه غير في وحده غير قابلة للفصل أو التجزئة ، وهذه المجالات أو الركائز هي : -

الأول :مجال الاعتقاد : ويعني الاعتراف والإقرار لله بأنه وحده لا شريك له في ربوبيته ، ولا في ألوهيته على حد سواء ، وعدم الإشراك به أحدًا لا في الربوبية ولا في الألوهية .

يقول سيد : " القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة، وترجع إليها التكاليف والفرائض، وتستمد منها الحقوق والواجبات . . التي يجب أن تقوم أولًا .. هي أنه يجب ابتداءً أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم في حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده في عقيدتهم ، لا يشركون معه أحدًا في ألوهيته ، ولا يشركون معه أحدًا في ربوبيته كذلك ، يعترفون له وحده بأنه المتصرف في شؤون هذا الكون في عالم الأسباب والأقدار، ويعترفون له وحده بأنه المتصرف في حسابهم وجزائهم يوم الدين، ويعترفون له وحده بأنه هو المتصرف في شؤون العباد في عالم الحكم والشريعة كلها سواء "[1].

ويقول أيضا : " - الله لا إله إلا هو - هذه الوحدانية الحاسمة التي لا مجال فيها لأي انحراف أو لبس مما طرأ على الديانات السابقة - بعد الرسل - ولا لأي غبش مما كان يرين على العقائد الوثنية التي تميل إلى التوحيد ولكنها تلبسه بالأساطير ، هذه الوحدانية الحاسمة الناصعة هي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها ، ينشأ عنه الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٢٩ بتصرف يسير.

والعبادة ، و الحاكمية لله وحده ... فتوحيد الله هو إفراده – سبحانه – بالألوهية ، وبخصائصها بحيث لا يكون له فيها شريك "[١].

الثاني: مجال العبادة : والتوجه إلى الله وحده بالعبودية، فلا يكون الإنسان عبدًا إلا لله، ولا يتجه بالعبادة إلا لله، ولا يلتزم إلا طاعة الله وما يأمره الله به من الطاعات، وهذه الخاصية من خصائص الألوهية ناشئة عن الخاصية السابقة وهي الاعتقاد بوحدانية الله دون شريك له في ربوبيته وألوهيته[٢].

الثالث : مجال الحاكمية والتشريع : ويعني اعتقاد تفرد الله وحده بالحاكمية والتشريع ، فيكون الله وحده هو المشرع للعباد، ويجيء تشريع البشر مستمدًا من شريعة الله ، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم كلها من الله، فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل في ميزان الله ، ولا شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف عن منهج الله ، وهكذا إلى أخر ما ينبثق عن معنى الوحدانية من مشاعر في الضمير أو مناهج لحياة الناس في الأرض على السواء[٣].

" فأخص خصائص الألوهية، هو الحاكمية والتشريع للبشر ، ووضع الأسس التي تقوم عليها حياتهم وارتباطهم "[٤].

وقد ركز سيد قطب كثيرًا على بيان هذه الثلاث الخصائص وإيضاح مدى الارتباط بينها، وأنها مجتمعه تمثل حقيقة الدين والتوحيد والألوهية، فلا يكون الدين صحيحًا إلا بوجودها مجتمعة .

ومن ذلك قوله -رحمه الله- : " وهكذا يتبين أن الاعتراف بالربوبية [٥] لله وحده، والعبادة لله وحده و الدينونة لله وحده ، تعني في مجموعها إفراد الله بالألوهية ، أو تعني بالمدلول الاصطلاحي " شهادة أن لا إله إلا الله " ، وأن الاعتقاد بألوهيته- سبحانه- وربوبيته هي كالتوجه إليه وحده بالشعائر التعبدية ، كالاعتراف بحاكميته وحده والتحاكم إلى شريعته وحدها ، كلها سواء في تكوين مدلول " لا إله إلا الله" فالذي يعترف بحاكمية غير الله وشرعه ونظامه ، إنما يعترف لهذا الغير بالربوبية

(١) المصدر السابق ١/ ٢٨٦ ، ٢/ ٨٣٢ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ١/ ٢٨٦ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٦ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٦١٩ .
(٥) يستخدم سيد لفظ الربوبية بمعنى: السلطان والحاكمية والدينونة ، وينظر :التمهيد في أول هذا الباب .

وبالعبادة والدين ، وهذا هو الأصل العام - المعلوم من الدين بالضرورة - الذي يقوم عليه الحكم بكفر من لا يفرد الله سبحانه وتعالى بخصائص الألوهية مجتمعة - لا ببعضها دون بعض - وهي : الاعتقاد القلبي بإلوهية الله وحده ، والتوجه إليه بالشعائر التعبدية وحده ،و الدينونة له بالحاكمية وحده ممثلة في التحاكم إلى شريعته وحدها " [١]

ويقول: "إن "الألوهية" و" الربوبية" و" العبادة" و" الدين "تذكر في القرآن في معرض " الاعتقاد " وفي معرض " الشعائر" وفي معرض " الحاكمية "على السواء.

وتوحيد الله - وبالتعبير الاصطلاحي الفقهي -" شهادة أن لا إله إلا الله " وهي التي يدخل به الإنسان في الإسلام ، ويكسب بها هذه الصفة ، و يعصم بها دمه وماله في الإسلام ، تعني هذه المعاني والمدلولات كلها مجتمعه ، ولا توجد شرعًا إلا بعد توافر هذه المعاني والمدلولات مجتمعه تعني إفراد الله - سبحانه- بالألوهية ، وذلك بالاعتقاد في ألوهيته وحده ، وبالتوجه إليه بالشعائر التعبدية وحده ، وبالاعتراف له بحق الحاكمية في تنظيم الحياة البشرية بشريعته وحده " [٢].

وقد قرر سيد - رحمه الله - هذا الأمر في مواضع كثيرة [٣] ، وبين أن هذا ليس " رأيًا " له أو " رأيًا " لغيره من البشر ، بل أنه ليس موضعًا لرأي عالم أو مفسر أو مجتهدٍ من الفقهاء ، إنما هو النص الذي لا مجال فيه للتأويل ، والحكم المعلومَ من الدينَ بالضرورة ، الذي لا مجال فيه للرأي والاجتهاد ، فلا رأي مع النص وإنما هو بيان لأصل هذا الحكم في العقيدة الإسلامية والمنهج القرآني ، وموضعه في النصوص التي وردت به [٤].

وفي هذا المبحث بيان لخصائص ومجالات الألوهية عند سيد - رحمه الله - وذلك في المطالب الثلاثة الآتية : -

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٥١ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٤٧-١٤٨ .

(٣) ينظر: في ظلال القرآن ١/ ٢٦٨ ، ٤٨١ ، ٤٩٠ - ٢/ ٦١٠، ٦١٩، ٦٢٣ ، ٦٩٦ ، ٧٣٢ ، ٨٣٢ ، ٨٩٠، ٩٧٠ ، ١١٧٥ - ٣/ ١٤٤٣ ، ١٧٦٣- ٤/ ١٨٥٢ ، ١٨٦٦ ، ١٩٤٤ ، ١٩٦٣ ، ١٩٩٠ ، ومقومات التصور الإسلامي ، ص ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٥١، ١٨١- ١٨٤ ، ومعالم في الطريق ص ١٣٥ ، وهذا الدين ص ١٧ وما بعدها .

(٤) مقومات التصور الإسلامي ص (١٤٧) بتصرف .

المطلب الأول
" لا إله إلا الله " معناها ، ومقتضياتها

ذهب كثير من المتكلمين إلى أن كلمة " إله " تعني: القادر على الاختراع والخلق[١]، وذلك لأنهم فهموا من معنى " إله " إنها بمعنى " آلِهٌ " - أي خالق - ، وليست بمعنى " مألوه " أي معبود[٢] .

أما جمهور أهل السُّنَّة والجماعة فيقولون أن كلمة " لا إله إلا الله " تدل على توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته ، وأنه من الخطأ قصرها على توحيد الربوبية ، وإخراج توحيد الألوهية من مدلولها فمن جعل غاية معناها " لا خالق إلا الله " فقد جهل كثيرًا من معناها، واخطأ في فهم مدلولها .

فالألوهية أمر زائد على الربوبية ، فغالب الأمم كانت مقرة بالربوبية كما أخبر القرآن عنهم ، وإنما كانت دعوة الرسل إلى توحيد الألوهية والعبادة وعدم الشرك بالله سبحانه وتعالى ، وكلام جمهور أهل السُّنَّة والجماعة في بيان معنى " لا إله إلا الله " قائم على أنها تعني : " لا معبود بحق إلا الله" وهذا الإقرار يتضمن الاعتراف بالربوبية كما تقدم ، خلافًا للمتكلمين[٣] .

ولا يفهم من هذا الكلام أن المتكلمين مشركون في الألوهية ، بل كثير منهم يوجب عبادة الله وحده لا شريك له ويمنع عبادة غير الله لاسيما المتقدمون منهم، ولكنهم لا يجعلون ذلك من معاني التوحيد المدلول عليه بكلمة " لا إله إلا الله " وإنما يوجبونه بأدلة أخرى من الكتاب والسُّنَّة .

معنى " لا إله إلا الله " ومقتضياتها عند سيد قطب :

وقف سيد - رحمه الله - في الظلال وفي كتبه الأخيرة خاصةً في المعالم والمقومات

---

(١) انظر : أصول الدين، للبغدادي ص ١٢٣ ، وشرح أسماء الله الحسنى ، للرازي ص ١٢٤ ، واللمع ، للجويني ص٨٦ .

(٢) انظر : منهاج السُّنَّة لابن تيمية ٢/ ٦٥ ، ومجموع الفتاوى ٨/ ١٠١ .

(٣) ينظر: تفسير الطبري ١/ ٢٢٦ ، ومجموع الفتاوى ٨/ ١٠١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ٢٨-٣٦ ، ٧٢، وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٧٥ - ٧٦ .

كثيرًا عند كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " وراعه ما وصل إليه حال كثير من المسلمين في الأرض من فهم لمعنى " لا إله إلا الله " على أنها كلمة تقال باللسان وأداء لبعض الشعائر التعبدية ، وليست منهجًا للحياة في كل مجالاتها .

ومن ثم كان كلامه - خاصة في المعالم والمقومات - مركزًا حول بيان المدلول الحقيقي لهذه الكلمة الذي نزلت به من عند الله ، والذي صنع الله به ما صنع في الأرض من إخراج الأمة المثالية ، التي انطلقت تحطم الطواغيت في الأرض ، وتقيم مكانتها حكم الله وشريعته ومنهجه ، وتجعل الدين كله لله ، وبيان أن " لا إله إلا الله" التي يدخل بها الناس الجنة في الآخرة ، وتزول بها الجاهلية من الأرض وتقام بها دولة الحق في الدنيا ، ليست هي كلمة التي تنطق باللسان دون أن يكون لها رصيد من يقين القلب وواقع السلوك ، إنما هي تلك التي تُنْطَق باللسان، ويملأ اليقين بها القلب وتتمثل في سلوك واقعي يقيم المنهج الرباني والشريعة الربانية ، ويجاهد الأنظمة الجاهلية ولا يرضى بها ولا يرضى عنها ، وإلا فهي كلمة بلا رصيد، لا يقبلها الله في الآخرة ، ولا تغير شيئًا في واقع الأرض ، لأنها لم تبرأ من الشرك المتمثل في إقرار حاكمية البشر بدلًا من حاكمية الله ، والبراءة من الشرك وهي شرط لقبول " لا إله إلا الله " في الآخرة ، وشرط للتمكين في الأرض في الدنيا .

وكان أعداء الإسلام حين جاسوا خلال الديار الإسلامية ، قد نحّوا شريعة الله عن الحكم وحكموا بدلًا منها شرائع البشر ، ثم قالوا للناس لا بأس عليكم فأنتم مسلمون ما دمتم تُصَلّون وتصومون وتقدمون بشرائع العبادة ! ثم سلطوا عليهم من الأفكار والمعتقدات والأنظمة وأنماط الحياة الواقعية ما يصرفهم عن الصلاة والصوم والعبادة ، ثم قالوا لهم : لا بأس عليكم ! فأنتم مسلمون ما دمتم تقولون " لا إله إلا الله "! فجاءت كتابات سيد - رحمه الله - تقول للناس : إنها ليست هذه هي " لا إله إلا الله " التي تعطي الناس صفة الإسلام ، إنما هي تلك التي ينطقها الناس بلسانهم ، وتستيقن بها قلوبهم ، ويعملون بمقتضياتها في واقع حياتهم ..

عند ذلك لم يطق أعداء الإسلام من سيد - رحمه الله- أن يفسد عليهم بكتاباته جهد قرن كامل من الزمان ظلوا فيه يبعدون الناس عن حقيقة " لا إله إلا الله "

ويوهمونهم أنهم ما زالوا مسلمين ، فكان ما كان [١] .

ويمكن بيان معنى " لا إله إلا الله " ومدلولها ومقتضياتها عند سيد قطب ـ رحمه الله ـ فيما يأتي :ـ

أولا : معنى " لا إله إلا الله " ومدلولها :

يرى سيد - رحمه الله - أن معنى الشهادة ومدلولها هو توحيد الله تعالى حيث يقول: " والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام على مدار التاريخ البشري هي قاعدة " لا إله إلا الله " أي إفراد الله - سبحانه- بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية .

إفراد الله بها اعتقاد في الضمير، وعبادة في الشعائر، وشريعة في واقع الحياة ، فشهادة " أن لا إله إلا الله " لا توجد فعلًا، ولا تعتبر موجودة شرعًا ، إلا في هذه الصورة المتكاملة ، التي تعطيها وجودًا جديًا حقيقيًا يقوم عليه اعتبار قائلها مسلمًا أو غير مسلم .

ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية. أن تعود حياة البشر بجملتها إلى الله ، ولا يقضون هم في أي شأن من شؤونها ، ولا في أي جانب من جوانبها ، من عند أنفسهم ، بل لابد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه ، وحكم الله هذا يجب أن يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم إياه وهو رسول الله ﷺ ، وهذا يتمثل في شطر الشهادة الثاني من ركن الإسلام " شهادة أن محمدًا رسول الله " .

هذه هي القاعدة النظرية التي يتمثل فيها الإسلام ويقوم عليها ، وهي تنشئ منهجًا كاملًا للحياة حين تطبق في شؤون الحياة كلها ، يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية في داخل دار الإسلام وخارجها ، وفي علاقاته بالمجتمع المسلم وفي علاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى " [٢].

ويقول أيضًا تحت عنوان - " لا إله إلا الله " منهج حياة - : العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة : أن لا إله إلا الله ، والتلقي

---

(١) ينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ٥- ٦ بتصرف .

(٢) معالم في الطريق - سيد قطب ص ٥٤-٥٥

عن رسول الله ﷺ في كيفية هذه العبودية - هو شطرها الثاني- المتمثل في شهادة أن محمدًا رسول الله .

والقلب المؤمن المسلم الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها ، لأن كل ما بعدها من مقومات الإيمان وأركان الإسلام إنما هو مقتضى لها... ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها .. فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة ، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة أو قامت على قاعدة أخرى معها ، أو عدة قواعد أجنبية عنها ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١) "(٢).

" إن السِّمة الأولى المميزة لطبيعة" المجتمع المسلم " هي أنه يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله ، هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " ، وتتمثل هذه العبودية في التصور الإعتقادي ، كما تتمثل في الشعائر التعبدية ، كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء .

- فليس عبدًا لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (٣) .

- وليس عبدًا لله من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله - معه أو دونه - : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ (٤) .

- وليس عبدًا لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله ،عن الطريق الذي بلّغنا الله به وهو رسول الله ﷺ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ (٥) ، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ

(١) سورة يوسف : الآية ٤٠ .
(٢) معالم في الطريق ص ٩٢-٩٣ .
(٣) سورة النحل : الآية ٥١-٥٢ .
(٤) سورة الأنعام : الآية ١٦٢-١٦٣
(٥) سورة الشورى : الآية ٢١

فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (١).

- هذا هو المجتمع المسلم ، المجتمع الذي تتمثل العبودية لله وحده في معتقدات أفراده و شعائرهم وعبادتهم ، و نظامهم الجماعي وتشريعاتهم .. وأيُّما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود ، لتخلف ركنه الأول وهو " شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " (٢).

ويقول أيضًا : " وما كانت الجاهلية العربية التي واجهها الإسلام أول مرة في الجزيرة العربية تنكر الله البتة ، وما كانت تجهل أن الله هو الخالق ، الرازق ، القوي ، الذي يجير لا يجار عليه ..، ولم يدعها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الاعتقاد بوجود الله ، ولكنه دعاها إلى توحيد الله ، دعاها إلى الاعتقاد بأن الله هو الإله والرب والقيم، ودعاها إلى عبادة الله وحده والتقدم إليه بالشعائر، ودعاها إلى التحاكم إلى شريعة الله وحده و الدينونة له بالعبودية ، وكانت هذه الدعوة بمضموناتها هذه كاملة ، هي معنى : " شهادة أن لا إله إلا الله " التي هي الإسلام " (٣).

والنصوص في بيان معنى " لا إله إلا الله " ومدلولها كثيرة جدًا فيما كتبه سيد -رحمه الله - وكلها تقرر أن " لا إله إلا الله " تعني توحيد الله سبحانه وتعالى ، وإفراده بإلوهيته ، وبالاعتقاد بأنه هو الإله والرب والقيم الحق ، والتقرب إليه بالعبادات والشعائر دون شريك، وتحكيم شرعه الذي جاء به رسوله محمد ﷺ في كل شؤون الحياة ومجالاتها .

وتقرر أن هذا هو المعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، وأن قصره على بعض الجوانب السابقة دون بعض يفرغها من معناها ، ويجعلها غير ذي فائدة في الدنيا والآخرة .

وأن هذا المعنى هو الذي آمن من آمن به عن علم ، وكفر به ورفضه من رفضه من المشركين عن علم أيضًا ، فالذي قبلها قبلها على أنها منهج حياة متكامل اعتقادا وسلوكًا وانقيادًا ، والذي رفضها ، رفضها لأنها منهج حياة أيضا يتعارض مع مصالحه وأهدافه في الحياة .

---

(١) سورة الحشر : الآية ٧.

(٢) معالم في الطريق : ص ٩٤-٩٥ بتصرف يسير .

(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٠٧ .

ويلاحظ أن سيدًا - رحمه الله - ركز كثيرًا عند حديثه عن معنى ومدلول " لا إله إلا الله " على ربطها بقضية الحاكمية والتشريع والطاعة ، حتى جعل في بعض النصوص معنى " لا إله إلا الله " أي لا حاكمية ولا سلطان إلا الله ، وذلك لأن الناس لم يكن انحرافهم في الاعتقاد بوجود الله وفي التقرب إليه بالشعائر والعبادات هو الغالب، إنما كان انحرافهم ولا يزال في مسألة التحاكم إلى غير شريعة الله والحكم بغير ما أنزل الله ، وطاعة المشركين فيما يخالف شرع الله ، لهذا السبب كان تركيزه كثيرًا على بيان دلالة " لا إله إلا الله " على هذا المعنى ، وأنها بدونه تكون قد فقدت ركنًا ومقومًا من مقوماتها التي لا تنفع بدونها مجتمعه كما سبق . (١)

فشهادة " أن لا إله إلا الله " ليست عبارة ولكنها منهج ، فإذا ظلت مجرد عبارة فليس هي " ركن " الإسلام المطلوب المعدود في أركان الإسلام .

ومن ثم ندرك القيمة الحقيقة لمثل هذه الشهادة التي ينطق بها الملايين اليوم ، ولكنها لا تتعدى شفاههم ، ولا يترتب عليها أثر في حياتهم وهم يحيون على منهج جاهلي شبه وثني ، بينما شفاههم تنطق بمثل هذه العبارة ...

إن " لا إله إلا الله " أو " ربنا الله " منهج حياة .. هذا ما ينبغي أن يستقر في الضمائر والأخلاد ، كيما تبحث عن المنهج الكامل الذي تشير إليه مثل هذه العبارة وتتحراه " (٢) .

ثانيا : مكانة " لا إله إلا الله " في الدين :

من خلال كلام سيد – رحمه الله – حول توحيد الألوهية الذي هو معنى " لا إله إلا الله " تظهر لنا المكانة الرفيعة لهذا التوحيد ولهذه الشهادة ، ويمكن أن نوجز ذلك في النقاط التالية : –

---

(١) ينظر في بيان معنى " لا إله إلا الله " عند سيد – رحمه الله – :
– في ظلال القرآن ٢/ ٨٣٢ ، ١٠٠٥ ، ١٠٥٧ ، ١٠٦ ، ٣/ ١٢٣٠ ، ١٥٠٢-١٥٠٣ ، ٤/ ٢١١٤ ، ٦/ ٣٢٦٠ .
– معالم في الطريق ٥٢-٦١ .
– مقومات التصور الإسلامي ١٨ وما بعدها ،الصفحات: ١٠٧-١١٠ ، ١٣٢-١٣٤ ، ١٤٧ – ١٥٧ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٦٠ .

١ - أنها التي يدخل الإنسان بها في الإسلام ، ويعصم بها دمه وماله :

يقول سيد -رحمه الله -: " وتوحيد الله ، وبالتعبير الاصطلاحي الفقهي" شهادة أن لا إله إلا الله" وهي التي يدخل بها الإنسان في الإسلام ، ويكتسب بها هذه الصفة، ويعصم بها دمه وماله في الإسلام تعني هذه المعاني والمدلولات كلها مجتمعه، إفراد الله سبحانه بالألوهية باعتقاد ألوهيته وحده ، والتوجه إليه بالشعائر التعبدية، والاعتراف له بحق الحاكمية في تنظيم الحياة البشرية بشريعته وحده "[(١)].

٢ - أنها قاعدة التصور الإسلامي الذي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها:

في ظلال قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[(٢)]، يقول سيد -رحمه الله-: " فهذه الوحدانية الحاسمة التي لا مجال فيها لأي انحراف أو لبس مما طرأ على الديانات السابقة بعد الرسل ، ولا لأي غبش مما كان يرين على العقائد الوثنية ... هذه الوحدانية الحاسمة الناصعة هي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها ، فعن هذا التصور ينشأ الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة ، فلا يكون الإنسان عبدًا إلا لله ، ولا يتجه بالعبادة إلا لله ، ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله وما يأمره الله به من الطاعات ، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة : الحاكمية لله وحده .، فيكون الله وحده هو المشرع للعباد، ويجيء تشريع البشر مستمدًا من شريعة الله ، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم كلها من الله ، فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل في ميزان الله ، ولا شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف عن منهج الله "[(٣)].

٣ - أنها مفرق الطريق في التصور والاعتقاد ، ومفرق الطريق في الحياة والسلوك :

يقول سيد -رحمه الله- : " الله لا إله إلا هُوَ، هذا التوحيد الخالص الناصع هو مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائرَ العقائد ، سواء منها عقائد الملحدين والمشركين ، وعقائد أهل الكتاب المنحرفين : يهودًا أو نصارى على اختلاف مللهم ونحلهم جميعًا ، كما أنه هو مفرق الطريق بين حياة المسلم وحياة أهل العقائد في

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٤٨، ١٦٩ .
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٦ بتصرف يسير.

الأرض ، فالعقيدة هنا تحدد منهج الحياة ونظامها تحديدًا كاملًا دقيقًا "[١].

٤- أنها أساس الدعوة إلى الله ومنطلقها :

يقول سيد : " فالمنهج الإسلامي لم يبدأ من علاج رذائل الجاهلية وانحرافاتها، إنما بدأ من العقيدة بدأ من شهادة أن لا إله إلا الله ،وطالت فترة إنشاء "لا إله إلا الله" هذه في الزمن حتى بلغت نحو ثلاثة عشر عامًا ، لم يكن فيها غاية إلا هذه الغاية ! تعريف الناس بإلههم الحق وتعبيدهم له وتطويعهم لسلطانه ، حتى إذا خلصت نفوسهم لله، وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما يختاره الله ،عندئذ بدأت التكاليف - بما فيها الشعائر التعبدية - وعندئذٍ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية" [٢] .

٥- أنها أول ما يجب معرفته والعلم به قبل العمل :

يقول سيد في ظلال قوله تعالى﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾[٣]: هذا توجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التي يقوم عليها أمر النبي ﷺ ومن معه ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ، وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها في الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى "[٤].

٦- أنها أصل دين الله الثابت وحقيقته في كل زمان :

ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[٥]، يقول سيد-رحمه الله -: " وهذه حقيقة لها وزنها ، إن الرسول ليس مجرد " واعظ " يلقي كلمته ويمضي ، كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين ، أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول " الدين " .

إن الدين منهج حياة، منهج حياة واقعية ، بتشكيلاتها وتنظيماتها ، وأوضاعها وقيمها ، وأخلاقها وآدابها ، وعباداتها وشعائرها كذلك ، وهذا كله يقضي أن يكون

(١) المصدر السابق ١/ ٣٦٥، ٣٦٧ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٧٣- ٩٧٤ بتصرف يسير .
(٣) سورة محمد : الآية ١٩ .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٥ .
(٥) سورة النساء : الآية ٦٤ .

للرسالة سلطان يحقق المنهج ، ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان دعوة وبلاغًا، ونظامًا وحكمًا ، وخلافة بعد ذلك عن رسول الله - ﷺ - تقوم بقوة الشريعة والنظام، على تنفيذ الشريعة والنظام لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول ، وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول .. وهذه هي صورة الإسلام أو الدين ... ويبقى أصل الدين الثابت وحقيقته التي لا يوجد بغيرها ..إفراد لله - سبحانه - بالألوهية "شهادة أن لا إله إلا الله" ومن ثم إفراده بالحاكمية والرجوع إلى الله والرسول ".[١]

" ومن أجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة ... جاء شريعة وعقيدة وشعائر تعبدية ، وكانت هذه الثلاث هي قوام دين الله وهي مقومات "لا إله إلا الله كما سبق "[٢].

"إن الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة ،هي دعوة التوحيد والعبادة والعبودية لله ، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول : ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[٣] .

ثالثًا : مقتضيات شهادة " أن لا إله إلا الله " :

ركز سيد - رحمه الله - كثيرًا عند حديثه عن كلمة التوحيد " لا إله إلا الله "على بيان مقتضياتها ومستلزماتها ، فهي تعني عنده - كما سبق - منهج حياة ، وبالتالي فلا يكفي أن تكون اعتقادًا ، أو نطقًا باللسان بل لابد أن يتبعها عمل وطاعة في الواقع، ومقتضياتها عند سيد قطب هي :-

١ - الاستسلام الكامل لله - تعالى - اعتقادًا وشعورًا وعملًا واتباعًا في كل شؤون الحياة:

يقول سيد -رحمه الله-: " فشهادة الله -سبحانه- بأنه لا إله إلا هو، مسوقة لبيان ما هو من مستلزماتها، وهو أنه لا يقبل إذن من العباد إلا العبودية الخالصة له ، الممثلة في الإسلام بمعنى الاستسلام - لا اعتقادًا وشعورًا فحسب - ولكن كذلك عملًا وطاعة وإتباعا للمنهج العملي الواقعي المتمثل في أحكام الكتاب . ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمان يقولون : إنهم يؤمنون بالله ، ولكنهم يشركون

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٥، ٦٩٦ بتصرف .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٦٩ بتصرف يسر وينظر أيضا : ٢/ ٨٢٦-٨٢٨ .
(٣) سورة المؤمنون : الآية ٢٣ .

معه غيره في الألوهية حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره ، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه، وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره . فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله ولا تستقيم مع شهادة الله- سبحانه- بأنه لا إله إلا هو" (١)

إنها " ألوهية واحدة ،وإذن فدينونة واحدة ، واستسلام لهذه الألوهية لا يبقى معه شيء في نفوس العباد ولا في حياتهم خارجًا عن سلطان الله " . (٢)

٢- التوجه إليه- سبحانه- وحده بالعبادة والعمل :-

يقول سيد : " فالوحدانية التي هي قاعدة التصور الإسلامي ينشأ عنها الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية ، والعبادة ، فلا يكون الإنسان عبدًا إلا لله ،ولا يتجه بالعبادة إلا لله ، ولا يلتزم بطاعة إلا لله وما يأمره الله به من الطاعات " (٣).

ويقول : " إن شهادة لا إله إلا الله محمدًا رسول الله هي قاعدة العبودية الحقة وما بعدها من مقومات الإيمان وأركان الإسلام إنما هو مقتضى لها ، فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الإسلامية ... إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلّغه لنا رسول الله ﷺ عن ربه ... ومن ثم تصبح شهادة "أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها " (٤).

٣- التلقي عن الله وحده في كل شؤون الحياة ومجالاتها :

يقول سيد- رحمه الله-: " وكل من ينطق بالشهادتين : " شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " لا يقال له إنه شهد إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها، ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلهًا ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله،

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٨ ، وينظر : ١/ ٣٦٤ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٧٩ ،وينظر أيضا ١/ ٣٨٠-٣٨١، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٥٦٢ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٦٨ بتصرف يسير .
(٤) معالم في الطريق ص ٩٢ بتصرف يسير .

فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد؛ وأخص خصائص العبودية التلقي من الله ، ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد ﷺ بما أنه رسول الله ﷺ ، ولا يعتمد مصدرًا أخر للتلقي إلا هذا المصدر " [١].

ويقول أيضا: " ولا يُقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم ، أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج ، وتحت تصرفه وتوجيهه،... لا يقبل من الفرد المسلم ، ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر: منهجًا للحياة الشخصية وللشعائر والعبادات والأخلاق والآداب مستمدًا من كتاب الله ، ومنهجًا للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدولية مستمدًا من كتابِ أحدٍ أخر، أو من تفكيرٍ بشريٍ على الإطلاق!.

إن مهمة التفكير البشري أن تستنبط من كتاب الله ومنهجه أحكامًا تفصيلية تطبيقية لأحداث الحياة المتجددة ، وقضيتها المتطورة - بالطريقة التي رسمها - ولا شيء وراء ذلك ، وإلا فلا إيمان أصلًا ولا إسلام ، لا إيمان ابتداءً ولا إسلام ، لأن الذين يفعلون ذلك لم يدخلوا بعد في الإيمان ، ولم يعترفوا بعد بأركان الإسلام ، وفي أولها : "شهادة أن لا إله إلا الله " التي ينشأ منها أن لا حاكم إلا الله ، وأن لا مشرع إلا الله " [٢].

٤- الحكم بما أنزل الله وتحكيم شريعته والتحاكم إليها دون ما سواها :

يقول سيد - رحمه الله - : " إن الحكم بما أنزل الله دون سواه هو مظهر سلطان الله، وحاكميته ومظهر " أن لا إله إلا الله " [٣] ، وأن " شهادة لا إله إلا الله" ينشأ منها أن لا حاكم إلا الله وأن لا مشرع إلا الله " [٤] ، " ومن الشهادة لله بالوحدانية تنشأ قاعدة : الحاكمية لله وحده ، فيكون هو وحده المشرِّع للعباد ، ومنه تستمد القيم في الحياة كلها " [٥] .

" فالإسلام هو قبل كل شيء " نظام " . نظام للحياة البشرية ذو خصائص

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٨١-٤٨٢ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٠٥ بتصرف .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٢٨ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٧٠٥ .
(٥) المصدر السابق ١/ ٢٨٦ بتصرف وينظر أيضا : ٣/ ١٤٩٢ .

حميدة ، يقوم على أساس تحكيم شريعة الله وحدها – كما هي مبينه في كتابه وفي سنة رسوله – ﷺ – في أوضاع الحياة كلها وهذا التحكيم هو المقتضى الأول لشهادة : " أن لا إله إلا الله " بل هو المدلول الأول لهذه الشهادة ، والمدلول الذي لا يتحقق لهذه الشهادة بدون وجود في ضمير الإنسان ولا في حياته سواء ..

إن أولى خصائص الألوهية هي حق تعبيد الناس وتطويعهم للشرائع والأوامر، وحق أقامة النظم والأوضاع والمناهج والشرائع ،والقوانين والموازين ، وحمل الناس على إتباعها ... فالإقرار بإلوهية الله –سبحانه– وربوبيته لا يقوم إلا حين تقر النفوس بألوهيته وربوبيته في السماء والأرض في الحياة الآخرة، وفي ضمائر الناس وشعائرهم وفي حياتهم وواقعهم سواء ، بحيث لا تخرج جزئية واحدة من جزئيات الحياة البشرية –في الدنيا والآخرة – عن سلطان الله إلى سلطان سواه– وهذا هو مدلول قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1] .

إن هناك في جميع أنحاء الأرض في جميع الأزمنة والعصور قاعدتين اثنتين لتصور الحياة ونظامها :

أ – قاعدة تفرد الله – سبحانه– بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، وعليها يقوم نظام للحياة بتجرد فيه البشر من خصائص الألوهية.. ويعترفون بالله وحده، فيتلقون منه التصور الاعتقادي، والقيم الإنسانية والاجتماعية والأخلاقية، والمناهج الأساسية للحياة الواقعية ، والشرائع والقوانين التي تحكم هذه الحياة ، ولا يتلقونها من أحد سواه وبذلك : يشهدون " أن لا إله إلا الله " .

ب– وقاعدة ترفض ألوهية الله – سبحانه– وربوبيته وقوامته وسلطانه ، إما في الوجود كله – بإنكار وجوده – وإما في شؤون الأرض وحياة الناس ونظام المجتمع وشرائعه وقوانينه ، فتدعى لأحد من البشر: فرادًا أو جماعةً أو هيئةً أو طبقةً – أن يزاول من دون الله أو مع الله – خصائص الألوهية في حياة الناس، وبذلك لا يكون الناس الذين تقوم حياتهم على هذه القاعدة قد شهدوا " أن لا إله إلا الله " . "[2] .

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٨٤.

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٨-٢١ بتصرف يسير .

" فمن مقتضيات " لا إله إلا الله " رد السلطان كله إلى الله ، السلطان على الضمائر، وعلى الشعائر، وعلى واقع الحياة ،وعلى المال والقضاء ، والأرواح والأبدان ، والثورة على السلطان الأرضي الذي يغتصب خصائص الألوهية ، لأن الحاكمية العليا لله وحده " (١).

" ألوهية واحدة ، وإذن فجهة واحدة هي صاحبة الحق في تعبيد الناس لها وفي تطويعهم لأمرها، وفي إنفاذ شريعتها فيهم وحكمها، وفي وضع القيم والموازين لهم وأمرهم بإتباعها، وفي إقامة حياتهم كلها وفق التعليمات التي ترضاها . . وهذه هي مقتضيات التوحيد " (٢)

٥- التجمع عليها والتميز عن الجاهلية :

يقول سيد-رحمه الله- : " إنما يعتبر الناس مسلمين حين يضمون إلى الاعتقاد والشعائر ، إفراد الله سبحانه بالحاكمية ، ورفضهم الاعتراف بشرعية كل ما لم يصدر عن الله ، وهذا وحده هو الإسلام لأنه مدلول شهادة : "أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" كما عرف هذا المدلول في الاعتقاد الإسلامي وفي الواقع الإسلامي سواء! ، ثم يتجمع هؤلاء الذين يشهدون" أن لا إله إلا الله " على هذا النحو وبهذا المدلول في تجمع حركي بقيادةٍ مسلمةٍ، وينسلخوا من التجمع الجاهلي وقيادته الجاهلية" (٣).

٦- الجهاد في سبيل تحقيق ألوهية الله في الأرض :

يقول سيد-رحمه الله-: " ومقتضى هذه الشهادة- لا إله إلا الله ، محمد رسول الله - أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض كما بلغها محمد ﷺ فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس والذي بلغه عنه محمد ﷺ هو المنهج السائد والغالب والمطاع ، وهو النظام الذي يصرِّف حياة الناس كلها بلا استثناء .. فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله فهو إذن شهيد ، أي شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة

---

(١) معالم في الطريق ص٢٦ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٩ ، وينظر أيضا : ١/ ٣٨٢ ، ٢/ ٦٩٤- ٦٩٦ ، ٤/ ٢١١٥ ، وهذا الدين ص ١٧ وما بعدها ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٠٩ .

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٩٢ بتصرف يسير ، معالم في الطريق ص ٩٦-٩٧ ، ١٦٠ .

فأداها ، واتخذه الله شهيدًا ، ورزقه هذا المقام ، وهذا فقه قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]، وهو مدلول شهادة" أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" ومقتضاها لا ما انتهى إليه مدلول هذه الشهادة من الرخص والتفاهة والضياع ! " [2] . وهذا من أهم أهداف الجهاد في سبيل الله كما فهمة الرعيل الأول : والذي عبروا عنه بقولهم : " ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد، إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام " [3].

فهذه جمله من مقتضياتها ومستلزمات كلمة التوحيد ، عند سيد قطب - رحمه الله - والتي لابد من توافرها حتى تكون الشهادة صحيحة مقبولة نافعة في الدنيا والآخرة .

رابعًا : الانحراف عن مفهوم " لا إله إلا الله " وواجب الدعاة اليوم نحو ذلك :

ركز سيد-رحمه الله- كثيرًا على مسألة الغبش والغموض الذي أحاط بمفهوم " لا إله إلا الله " في الواقع الإسلامي المعاصر ، وبيّن واجب الدعاة والحركات الإسلامية نحو ذلك.

ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[4]، تحدث - سيد - عن منهج القرآن في العقيدة والحركة بها ، وأنه يقوم على بيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين، وبيان الباطل وكشفه أيضًا حتى تستبين سبيل المجرمين ، وأن ذلك ضروري لإنشاء اليقين الاعتقادي بالحق ، وتقوية الاندفاع به ، وبيّن أن هذا التحديد كان قائما وواضحا في حياة الرعيل الأول الذين واجهوا الشرك والجاهلية في أول الإسلام ..

ثم قال : " ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا - أي عدم وضوح الشرك والوثنية والإلحاد وديانات أهل الكتاب المحرفة - إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين ،

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤٠.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٨٢ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٥٧ ، وينظر أيضا : فصل" الجهاد في سبيل الله "من كتاب معالم في الطريق ص ٦٢ وما بعدها .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٥٥ .

في أوطانٍ كانت في يوم من الأيام دارًا للإسلام ، يسيطر عليها دين الله ، وتحكم بشريعته، ثم إذا هذه الأرض، وإذا هذه الأقوام ، تهجر الإسلام حقيقة وتعلنه اسمًا، وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادًا وواقعًا، وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادًا! فالإسلام شهادة "أن لا إله إلا الله ". وشهادة " أن لا إله إلا الله" تتمثل في الاعتقاد بأن الله – وحده – هو خالق هذا الكون المتصرف فيه ، وأن الله – وحده– هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله، وأن الله – وحده– هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله ، وأيما فرد لم يشهد" أن لا إله إلا الله " – بهذا المدلول – فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد، كائنًا ما كان اسمه ولقبه ونسبه ، وأيُّما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله– بهذا المدلول– فهي أرض لم تدن بدين الله ولم تدخل في الإسلام بعد .

وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين، وهم من سلالات المسلمين ، وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارًا للإسلام ، ولكن لا الأقوام اليوم تشهد "أن لا إله إلا الله "– بذلك المدلول – ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول .

وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام ! أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول " لا إله إلا الله "، ومدلول الإسلام في جانب ، وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الأخر .

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين ، وطريق المشركين المجرمين، واختلاط الشعارات والعناوين، والتباس الأسماء والصفات ، والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق!.

ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة فيعكفون عليها توسيعًا وتمييعًا وتلبيسًا وتخليطًا . حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام! تهمة تكفير " المسلمين " !!! ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم ، لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله ﷺ!.

هذه هي المشقة الكبرى و العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل! يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة ، وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف، وألا تقعدهم عنها لومه لائم ، ولا صيحة صائح : انظروا! إنهم يكفرون المسلمين!.

إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون! إن الإسلام بَيِّنٌ والكفر بَيِّنٌ ، الإسلام شهادة " أن لا إله إلا الله " - بذلك المدلول - فمن لم يشهدها على هذا النحو ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو ، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين المجرمين " (١) .

ومن كلام - سيد - في هذا النص وغيره أيضًا - نلمح أنه - رحمه الله - هاله وضع كلمة التوحيد في واقع المسلمين اليوم ، واللبس والغبش والغموض والتميع الذي أصاب مدلولها وقصرها على جوانب من مدلولها ، ولذلك نجده ينبه كثيرًا على جهود الأعداء في صرف الناس عن المدلول الحقيقي لشهادة التوحيد بأساليب متنوعة ، وينبه الدعاة والحركات الإسلامية إلى أن تعي واقع المسلمين المعاصر وتنطلق لإحياء المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد " لا إله إلا الله " مهتدية بمنهج القرآن ، وبفعل النبي ﷺ حيث بدأ بالتوحيد وبغرس مفهوم كلمة التوحيد الحقيقي في نفوس الناس فترة طويلة من الزمن ، وكان بإمكانه أن يسلك طريقًا آخرًا قد يبدو أنه أيسر من هذا الطريق ، وكان بإمكانه - ﷺ - أن يعلنها دعوة قومية عربية أو ثورة اقتصادية ، أو راية للإصلاح الاجتماعي والخلقي أو غير ذلك ، وكان سيجد من يعينه ويناصره ، لكنه أعلنها عقيدة تقوم على تقرير " لا إله إلا الله " بمفهومها الشامل وهذا ما يجب على الدعاة الانتباه إليه اليوم " (٢) .

خامسًا : وقفات مع دعوى " شذوذ سيد قطب في تفسير لا إله إلا الله " :

ذكر الدكتور/ ربيع المدخلي تحت عنوان " شذوذ سيد في تفسير" لا إله إلا الله

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١١٠٥- ١١٠٧ يتصرف ، وينظر أيضا ٢/ ١٠٥٧ ، ١٠٨٣ .

(٢) ينظر : " طبيعة المنهج القرآني" من معالم في الطريق ٢٤-٥٢ ، و في ظلال القرآن مقدمة سورة الأنعام ٢/ ١٠٠٤ - ١٠١٥ .

" عن أهل العلم "[١] أن سيدًا خالف علماء التوحيد والفقه واللغة المعتبرين ، وتابع المودودي في تفسيره لمعناها، ثم ذكر نصوصًا من كلام سيد وهي:

١ - قول سيد- رحمه الله- في كتاب " العدالة الاجتماعية " : " إن الأمر المستيقن في الدين : أنه لا يمكن أن يقوم في الضمير عقيدة ، ولا في واقع الحياة دينًا ، إلا أن يشهد الناس أن " لا إله إلا الله " أي لا حاكمية إلا لله ، تتمثل في قضائه وقدره ، كما تتمثل في شرعه وأمره "[٢] .

وعلّق الدكتور/ المدخلي على النص بقوله :" فقد فسر " لا إله إلا الله " بالحاكمية، وفسر الحاكمية بالقدر و الشرع ، فأين توحيد العبادة الذي جاء به جميع الأنبياء ، الذي هو المعنى الحقيق الخاص بـ" لا إله إلا الله " ؟! لقد أضاعه سيد قطب" [٣].

قول سيد : " لقد كان العرب يعرفون من لغتهم معنى إله ، ومعنى " لا إله إلا الله"، كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا .. فلا حاكمية إلا لله ، ولا شريعة إلا من الله ولا سلطان لأحد على أحد لأن السلطان كله لله "[٤] .

ولنا مع كلام الدكتور: المَدخلي السابق وقفات :

الوقفة الأولى: النص الأول الذي ذكره د/ المدخلي عن سيد في العدالة الاجتماعية هو من كلام طويل لسيد يتحدث في سياقه عن الدعوة إلى استئناف حياة إسلامية في مجتمع مسلم ، تحكمه العقيدة الإسلامية كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي ، ويبين فيه أن المجتمع بهذا الوصف السابق قد توقف وجوده منذ فترة، وبالتالي فلابد من الدعوة إلى استئنافه ، والجهر بهذه الدعوة على الرغم مما قد يحدث من صدمة وذعر للكثيرين ممن لا يزالون يحبون أن يكونوا " مسلمين " ، ويقرر أن ذلك ضرورة من ضرورات الدعوة إلى الإسلام اليوم .

ثم يقول سيد - رحمه الله - بعد ذلك " إن الأمر المستيقن في هذا الدين أنه لا يمكن أن تقوم في الضمير" عقيدة " ولا في واقع الحياة " دينًا " إلا أن يشهد الناس

---

(١) انظر : أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب - د. ربيع المدخلي ص ٦٣ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ص ٦٣ ، والعدالة الاجتماعية لسيد قطب ص ١٨٢ .
(٣) أضواء إسلامية للمدخلي ص ٦٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٦٦ و في ظلال القرآن ٢/ ١٠٠٥- ١٠٠٦ بتصرف .

أن " لا إله إلا الله " ، أي لا حاكمية إلا لله ، حاكمية تتمثل في قضائه وقدره كما تتمثل في شرعة وأمره ، وهذه كلها سواء في كونها أساسًا للعقيدة لا تقوم ابتداءً في الضمير إلا به ، كذلك لا يمكن أن يقوم في واقع الحياة دينًا إلا أن تتمثل العقيدة في نظام واقعي للحياة ... فتفرد فيه شريعة الله بالهيمنة على حياة الناس جملة وتفصيلاً، ويبرأ الحاكم والمحكوم من ادعاء حق " الألوهية " عن طريق ادعاء حق " الحاكمية" ومزاولة التشريع فعلًا بما لم يأذن به الله ..

ونحن لا نحدد مدلول " الدين " ولا مفهوم " الإسلام " على هذا النحو من عند أنفسنا...إنما الذي يحدد مدلول " الدين " ومفهوم " الإسلام " هو الله -سبحانه- إله هذا الدين، ورب هذا الإسلام ، وذلك في نصوص قاطعة لا سبيل إلى تأويلها.

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾(٢).

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٣) .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (٤) .

وكلها تقرر حقيقة واحدة : أنه لا إسلام ولا إيمان بغير الإقرار بالحاكمية لله وحده ، والرجوع إليه فيما يقع عليه التنازع - مما لم يرد فيه نص - والحكم بما أنزل الله - دون سواه - في كل شؤون الحياة ، والرضى بهذا الحكم قلبيًا بعد الاستسلام له عمليًا ، هذا هو " الدين القيم " ، و" الإسلام الذي أراده الله من الناس " . (٥)

أما النص الثاني فقد جاء في سياق كلام سيد -رحمه الله- عن اهتمام القرآن

(١) سورة يوسف: الآية ٤٠ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٤٩ .
(٣) سورة المائدة : الآية ٤٥ .
(٤) سورة النساء : الآية ٦٥ .
(٥) العدالة الاجتماعية : ص (١٨٢-١٨٣ بتصرف يسير .

والنبي ﷺ في بداية الدعوة بالعقيدة والتربية عليها ، وبيان أن سبب رفض العرب لهذه الكلمة هو أنهم عرفوا أن توحيد الألوهية وإفراد الله سبحانه وتعالى بها معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان والحكام ورده إلى الله ، والسلطان على الضمائر والشعائر والواقع في جميع جوانب الحياة ، والثورة على من يغتصب أولى خصائص الألوهية وبسبب معرفتهم بأثر هذه الكلمة على أوضاعهم وسلطانهم استقبلوها بذلك العنف والحرب "[١].

والملاحظ في النص الأول أن سيدًا فسر " لا إله إلا الله " بإحدى خصائصها وهي الحاكمية العامة قضاءً وقدرًا وشرعًا وأمرًا ، ومن أمر الله ألا يعبد إلا إياه ، كما يفهم من سياق الآيات المتعلقة بهذا الأمر، وكذلك في النص الثاني بيَّن سبب رفض قريش لهذه الكلمة لأنهم يعرفون أنها منهج حياة تقوم على حاكمية الله في كل شؤون الحياة ، ففسرها بإحدى خصائصها وهي الحاكمية .

٢- قول سيد - رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[٢]، "أي فلا شريك له في الخلق والاختيار"[٣]، يقول د/ المدخلي : " فهذا معنى من معاني الربوبية ضيع به المعنى الحقيقي لهذه الكلمة، ثم ذكر معنى هذه الكلمة عن ابن جرير وابن كثير ، وأن المقصود بها المعبود المتفرد بالألوهية" [٤] .

الوقفة الثانية: بالرجوع إلى كلام سيد في الظلال نجد أنه جاء في سياق كلامه عن قصة الشرك والشركاء ، وما يكون بينهم يوم القيامة من خصام وتبرؤ، مستدلًا بذلك على بطلان الشرك بالله سبحانه وتعالى ، بعد حكاية الله لقول المشركين للنبي ﷺ :﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾[٥] حيث جاء التقرير من الله في الآية بأنهم لا يملكون الاختيار لأنفسهم ، فالله وحده الذي له الخلق والاختيار.

وقد كان المشركون يشركون مع الله آلهة مدعاة ، والله وحده هو الخالق المختار ولا شريك له في خلقه ولا في اختياره ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٠٤ - ١٠٠٥ .
(٢) سورة القصص : الآية ٧٠ .
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٠٧ .
(٤) أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب ، للمدخلي ص ٦٤ .
(٥) سورة القصص: الآية ٥٧.

ثم جاء قوله تعالى بعد ذلك ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ﴾ على اختياره ونعمائه وحكمه وتدبيره وهو وحده المختص بالحمد والثناء ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيقضي بينكم بحكمه .. هكذا يطوقهم بالشعور بقدرة الله وتفرد إرادته في الوجود واطلاعه عليهم ورجعتهم إليه فكيف يشركون بعد هذا وهم في قبضته.. [١] .

فحديث سيد – رحمه الله – عن رد الله على المشركين في امتناعهم عن التوحيد وإتباع النبي ﷺ بسبب خوفهم من أن يتخطفهم الناس، فرد الله عليهم بأنه هو صاحب الخلق والاختيار سبحانه ، وبالتالي فلا يصح أن يشرك معه أحد ، فسياق الحديث عن تبرير المشركين لشركهم ورد الله عليهم .

٣- قول سيد –رحمه الله– في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ [٢]، "والإله هو المستعلي المستولي المتسلط " [٣] ، ويعلق الدكتور المدخلي قائلا : " من قال بهذا التفسير من الصحابة ومن علماء الأمة المعتبرين ؟! ثم يبين معنى الربوبية والألوهية عند السلف، ويخلص إلى أن سيد يخلط بين معاني الألوهية والربوبية فيضيع بذلك توحيد الألوهية [٤].

الوقفة الثالثة: وبالرجوع إلى النص في تفسير سورة الناس نجد سيدًا – رحمه الله – يبين أن " الاستعاذة بالرب، الملك، الإله، تستحضر من صفات الله سبحانه ما به يدفع الشر عامة ، وشر الوسواس الخناس خاصة .

فالرب هو المربي والموجه والراعي والحامي ، والملك هو المالك الحاكم المتصرف، والإله هو المستعلي المستولي المتسلط . . وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذي يتدسس إلى الصدور ، والله رب كل شيء ، وملك كل شيء ، وإله كل شيء، ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى في موقف العياذ والاحتماء ". [٥]

وكلام سيد – رحمه الله – هنا بناء على مفهوم الألوهية عنده وأنها مصطلح شامل للدين كله يدخل فيها الربوبية والأسماء والصفات والعبادة عند السلف ، وقد سبق

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٠٧ بتصرف يسير .
(٢)سورة الناس : الآية ٣ .
(٣) أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب د. المدخلي ص ٦٥ .
(٤) المصدر السابق ص ٦٥-٦٦ .
(٥) في ظلال القرآن (٦/ ٤٠١٠ بتصرف يسير .

بيان ذلك في أول هذا الفصل ، فليس خلطًا بين الألوهية والربوبية وإنما استنادًا إلى مفهوم الألوهية الشامل عنده كما سبق .

والخلاصة : أن سيدًا –رحمه الله – يرى أن الألوهية التي هي معنى " لا إله إلا الله " مصطلح شامل عام يقوم على ثلاث خصائص – كما سبق – هي (الاعتقاد، والعبادة ، والحاكمية) ، وقد ركز على بيان هذه الثلاث المقومات لمعنى " لا إله إلا الله " وأنها لا تكون صحيحة ولا مقبولة إلا بوجودها مجتمعه ، وهناك نصوص أخرى غير ما ذكره الدكتور / ربيع ، أشار فيها سيد – رحمه الله– إلى أن معنى " لا إله إلا الله "يعنى لا حاكمية إلا لله بالمعنى العام للحاكمية– كما سيأتي– وربما فسرها أحيانا ببعض خصائص الربوبية بناء على مفهوم الألوهية الشامل للجميع .

وأخيرًا : إذا كان سيد – رحمه الله –قد فسر الألوهية في النصوص التي ذكرها المدخلي بالحاكمية أو بعض صفات الربوبية ، فإنه قد فسرها أيضا بالعبادة والعبودية والإتباع في نصوص أخرى كثيرة سبق ذكرها عند الحديث عن معنى " لا اله إلا الله" عند سيد قطب .

فالعبادة عنده تعني : " الدينونة الشاملة لله وحده في كل شؤون الحياة والإتباع، وما الشعائر التعبدية إلا صورة من صور الدينونة لله التي يعنيها توحيد " العبادة "[1].

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٠٢ بتصرف يسير .

المطلب الثاني
العبادة

الفرع الأول : مفهوم العبادة لغة واصطلاحًا :

العبادة في اللغة : الخضوع والتذلل[١].

أما في الاصطلاح : فقد تنوعت أقوال السلف في تعريف العبادة ، وأشملها قول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: " العبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة "[٢] .

الفرع الثاني : مفهوم العبادة عند سيد قطب :

تعرض سيد - رحمه الله - كثيرًا لبيان معنى العبادة في اللغة والاصطلاح وأهميتها في حياة البشر، وعلاقتها بالعقيدة والحاكمية ونحوها ما يتعلق بمفهوم العبادة في الإسلام، وبيان ذلك فيما يأتي :

أولًا : العبادة في اللغة :

يوضح سيد -رحمه الله- معنى العبادة في اللغة فيقول : " إن معنى " عَبَدَ " في اللغة : دان ، وخضع، وذل [٣]، وطريق معبَّد : طريق مذلل ممهد، وعبَّده : جعله

---

(١) المفردات للراغب ص ٥٤٢ ومختار الصحاح للرازي ص١٧٢ .
(٢) العبودية لابن تيمية ص ٣٨ وينظر أيضًا : تجريد التوحيد للمقريزي ص ٢٢ وفتح المجيد ص ١٤ .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٠٢ .

عبدًا، أي : خاضعًا مذللًا [١] .

وبالتالي فالعبادة تعني : " الدينونة الشاملة " لله وحده في كل شؤون الدنيا والآخرة، ذلك أن هذا المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي ... ولم يكن معناه في الاصطلاح الإسلامي في أول الأمر أداء الشعائر، إنما كان هو معناه اللغوي نفسه، لأنه لم يكن شيء من الشعائر قد فرض حتى ينطلق اللفظ إليه، إنما كان المقصود هو معناه اللغوي الذي صار هو معناه الاصطلاحي، كان المقصود به هو الدينونة لله وحده ، والخضوع له وحده ، وإتباع أمره وحده، سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية ، أو تعلق بتوجيه أخلاقي ، أو تعلق بشريعة قانونية، فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خص الله سبحانه بها نفسه، ولم يجعلها لأحد من خلقه ..." . [٢]

ثانيًا : العبادة في الاصطلاح :

إذا كان معنى العبادة في اللغة هو: " الخضوع والتذلل " ، فإنها في الشرع يضاف إليها عنصرًا أخر هو " الدينونة والإتباع " الناشئ من التعظيم لله سبحانه وتعالى والشعور بأنه وحده صاحب السلطان والحكم .

ولهذا نجد سيدًا – رحمه الله – يقرر أن مصطلح العبادة في الإسلام يقوم على إفراد الله سبحانه وتعالى بالطاعة والخضوع والاستسلام والدينونة والإتباع في كل شؤون الحياة ، وما الشعائر التعبدية إلا مظهر من مظاهر الدينونة والعبادة لله وحده لا شريك له .

حيث تشتمل العبادة في الإسلام على كل نشاط يتوجه به الفرد إلى ربه سبحانه وتعالى أيًّا كان هذا النشاط وفيما يلي بعض النصوص لسيد – رحمه الله – في بيان مفهوم العبادة :

١ – يقول سيد :" إن العبادة :هي الإتباع في الشرائع بنص القرآن وتفسير رسول الله ﷺ فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابًا بمعنى الاعتقاد

(١) المصدر السابق ٤/ ١٩٩١ ، وينظر : ٣/ ١٧٦٣ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٩١ بتصرف يسير ، وينظر : ٣/ ١٧٦٣ .

بألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم...وإنما حكم الله عليهم بالكفر لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها" (١).

٢- ويقول أيضًا: " وإذا كان الله هو وحده المتفرد بالخلق والملك والرزق تقرر ضرورة وحتمًا أن تكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام" (٢) ، " ذلك أن العبادة هي العبودية وهي الدينونة وهي الإتباع والطاعة مع إفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الخصائص كلها لأنها من مقتضيات الاعتراف بالألوهية" (٣).

٣- ويقول أيضًا: " إن قضية " العبادة " ليست قضية شعائر، وإنما هي قضية دينونة وإتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة.. ولذلك استحقت كل هذه العناية في المنهج الرباني واستحقت كل هذه الرسل والرسالات، واستحقت كل هذه العذابات والآلام والتضحيات .(٤) ، "ومدلول العبادة : هو الدينونة لله وحده، لا في لحظات الصلاة، ولكن في كل شأن من شؤون الحياة"(٥).

٤- ويقول: " والعبادة في الإسلام ليست مجرد الشعائر، إنما هي كل نشاط ، كل حركة ، كل خالجة كل نية، كل اتجاه، وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان في هذا كله إلى الله وحده دون سواه ، مشقة تحتاج إلى الاصطبار، ليتوجه القلب في كل نشاط من نشاط الأرض إلى السماء ، خالصًا من أوشاب الأرض وأوهاق الضرورات ، وشهوات النفس، ومواضعات الحياة ، إنه منهج حياة كامل، يعيش الإنسان وفقه، وهو يستشعر في كل صغيرة وكبيرة طوال الحياة أنه يتعبد الله ، فيرتفع في نشاطه كله إلى أفق العبادة الطاهر الوضيء " (٦).

٥- ويقول: " والعبادة : أشمل من الصلاة ، فعبادة الله تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى الله ، فكل

(١) المصدر السابق ٣/ ١٦٤٢ وينظر أيضا: مقومات التصور الإسلامي ص ١٤١ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٦٣ بتصرف .
(٣) ٣/ ١٧٦٣ .وينظر ٤/ ١٨٥٣ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٤٧-١٥١
(٤) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٣ وينظر : ١٩٦٠-١٩٦٣ .
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٤ . بتصرف.
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣١٥ .

نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى الله ، حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات ، وما عليه إلا أن يذكر الله الذي أنعم بها ، وينوي بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هي عبادات وحسنات" [١] ، "ولم يتحول في طبيعتها شيء ، ولكن تحول القصد منها والاتجاه! " [٢] ، " فالعبادة يدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله " [٣].

و"البشر يملكون أن تكون حياتهم كلها عبادة دون أن ينقطعوا للتسبيح والتعبد كالملائكة، فالإسلام يعد كل حركة وكل نفس عبادة إذا توجه بها صاحبها إلى الله ، ولو كانت متاعًا ذاتيًا بطيبات الحياة! " . [٤]

ثالثًا : خصائص العبادة في الإسلام :

أشار سيد - رحمه الله – إلى بعض خصائص العبادة في الإسلام ومنها:

١- ارتباطها بالعقيدة : وذلك لأن الدين الإسلامي ليس هو مجرد عقيدة تستكن في الضمير، ولا مجرد شعائر تقام وعبادات، ولا مجرد تنظيم دنيوي منقطع الصلة بالعقيدة وبالشعائر التعبدية ، إنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله ، ويربط بين جوانبه ، ويشدها جميعًا إلى الأصل الأصيل ، وهو توحيد الله ، والتلقي منه وحده – في هذا النشاط كله – دون سواه ، توحيده إلهًا معبودًا، وتوحيده مصدرًا للتوجيه والتشريع لكل النشاط الإنساني أيضا ، لا ينفك هذا التوحيد عن ذاك – في الإسلام – وفي دين الله الصحيح على الإطلاق .

إن التشريعات والتوجيهات – في منهج الله – إنما تنبثق كلها من أصل واحد، وترتكز على ركيزة واحدة ، إنها تنبثق من العقيدة في الله ، وترتكز على التوحيد المطلق سمة هذه العقيدة ، ومن ثم يتصل بعضها ببعض، ويتناسق بعضها مع بعض، ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية، وتصبح دراسة أي منها ناقصة بدون

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٣١٥ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٤٤٥ .
(٣) المصدر السابق ١/ ١٨٩ .
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٣٧٣ .

الرجوع إلى أصلها الكبير، ويصبح العمل ببعضها دون البعض الآخر غير وافٍ بتحقيق صفة الإسلام ، وثمار المنهج الإسلامي في الحياة "[١].

"فقضية العبادة : قضية عقيدة وإيمان وإسلام ، وليست فقه أو سياسة أو نظام .. ثم هي بعد ذلك قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل في شريعة ونظام وأحكام "[٢]، " إن العبادة تعبير عن العقيدة فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة "[٣].

٢-الشمول: من خصائص العبادة في السلام الشمول: وله مظاهر عديدة منها:

أ- شمولها لكل ما سوى الله : فكل ماسوى الله هو عبد الله سبحانه وتعالى ، وذلك أنه ليس في الوجود إلا ألوهية وعبودية ، ألوهية الله سبحانه ، وعبودية ما سواه له سبحانه ، وقد ركز المنهج القرآني كثيرًا على تقرير هذه الحقيقة بأساليب متنوعة ، باعتبار أن العبودية والدينونة شاملتان للجود كله ، غير مقصورتين على الكائن الإنساني "[٤].

" فالعبودية لله تشمل كل شيءٍ وكل حي، فلا يخرج عنها شيءٌ ولا حيٌ في هذا الوجود ، إنما يتجرد كل حي وكل شيء مّن خصائص الألوهية ، ويقف موقف العبيد ، إنها عبودية الكون المادي ممثلا في أجرامه الفلكية الكبيرة، عبودية النجوم والكواكب والأشياء والأحياء في عالم الغيب والشهادة، عبودية الخلائق العاقلة المكلفة ،عبودية الملائكة والجن والأنس عبودية الأنبياء والرسل خاصة ، عبودية الطائعين والعصاة أيضًا ، إنها العبودية الشاملة أمام الألوهية المتفردة .. " .[٥]

ب- شمولها لكل شأن من شؤون الحياة :[٦]

في ظلال قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٧] .

يقول سيد -رحمه الله- : " وهذا النص الصغير يحتوي حقيقة ضخمة هائلة ،

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٥٩ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٣ وينظر : ١/ ٤٠٠، ٢/ ٦٦٠ ، ٦/ ٣٧١١، ٣٩٥٢.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٦١٤ .
(٤) مقومات التصور الإسلامي ص ٨١-٨٢ بتصرف .
(٥) المصدر السابق ص ١٢٦ -١٣٠ بتصرف ، وفي ظلال القرآن ٤/ ٢٢١١ ، ٦/ ٣٣٨٧ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٤ ، وينظر أيضا : ٣/ ١٧٦٣ ، ٤/ ٢٣٧٣، ٢٣١٥، ٢٤٤٥ .
(٧) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

لا تستقيم حياة البشر بدونها ... أول جانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والأنس، تتمثل في وظيفة هي العبادة أو العبودية لله، أن يكون هناك عبد ورب، عبد يَعبد، ورب يُعبد، وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار.

والجانب الآخر لتلك الحقيقة: أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر. فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر، والله لا يكلفهم هذا. وهو يكلفهم ألوانًا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم، وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن، ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان، نعرفها من القرآن من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني، وهي تقتضي ألوانًا من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقاتها، وذخائرها ومكنوناتها، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها، كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي ...

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني- أو وظيفة الإنسان الأولى - أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعًا، وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين:

الأول: استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي استقرار الشعور على أن هناك عبدًا وربًا، عبدًا يَعبد، وربًا يُعبد، وأن ليس وراء ذلك شيء...

الثاني: التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله، وبذلك يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله، كلها عبادة، وكلها تحقيق للوظيفة

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

الأولى... العبودية .. " . [١]

ج- شمولها لأوجه نشاط الإنسان جميعًا :

يقول- سيد- : " عبادة الله وحده منهج كامل للحياة ، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق ، ولحقيقة القوى والقيم في الكون وفي حياة الناس ، ومن ثم ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور " [٢] .

" فالعبادة غاية الوجود الإنساني ، يدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله تعالى " [٣]، " فالإنسان عندما يتجر ويعمل ويطلب الرزق ... هو في حالة عبادة " [٤].

" إنها العبادة ،عبادة الله في الزواج ، وعبادته في المباشرة والإنسال ، وعبادته في الطلاق والانفصال ، وعبادته في العدة والرجعة ،وعبادته في النفقة والمتعة، وعبادته في الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان ، وعبادته في الافتداء والتعويض، وعبادته في الرضاع والفصال ،عبادة الله في كل حركة وفي كل خطرة – ومن أجل ذلك يجيء الحديث عن الصلاة بين هذه الأحكام - تندمج عبادة الصلاة في عبادات الحياة ، الاندماج الذي ينبثق من طبيعة الإسلام ، ومن غاية الوجود الإنساني في التصور الإسلامي ، ويبدو السياق موحيًا هذا الإيحاء اللطيف، إن هذه عبادات ، وطاعة الله فيها من جنس طاعته في الصلاة ، والحياة وحدة والطاعات فيها جملة ، والأمر كله من الله ، وهو منهج الله للحياة ..." [٥].

ويبين سيد: " أن إطلاق مصطلح " العبادات " على الشعائر وعلى ما يكون بين العبد والرب من تعامل ، في مقابل إطلاق مصطلح " المعاملات " على ما يكون بين الناس بعضهم وبعض من تعامل جاء متأخرًا عن عصر نزول القرآن الكريم، ولم

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٨٧-٢٢٦٨ بتصرف، وينظر ٣٧١١ ومقومات التصور الإسلامي ص ١٣٦ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٨٧-٢٢٦٨ بتصرف ، وينظر ٣٧١١ ومقومات التصور الإسلامي ص ١٣٦ .
٦/ ٣٧١١ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٨٩ .
(٤) المصدر السابق ١/ ١٨٩ .
(٥) المصدر السابق ١/ ٢٣٨، وينظر أيضا : ١/ ٢٨٣ ، ٢/ ٦٥٨، ٤/ ١٩٠٢، ١٩٤٣ .

يكن هذا التقسيم معروفًا في العهد الأول.

إن تقسيم النشاط الإنساني إلى " عبادات " و " معاملات " مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة " الفقه " ، ومع أنه كان المقصود به في- أول الأمر- مجرد التقسيم " الفني " الذي هو طابع التأليف العلمي ، إلا أنه - مع الأسف - أنشأ فيما بعد آثارًا سيئة في التصور ، تبعها - بعد فترة - آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها، إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة " العبادة " إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط ، الذي يتناوله " فقه العبادات "، بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط الذي يتناوله فقه " المعاملات " وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه ، فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي .

ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى " العبادة " أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف ، والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة ، أولًا وأخيرًا .

وليس هناك من هدف في المنهج الإسلامي لنظام الحكم ، ونظام الاقتصاد ، والتشريعات الجنائية ، والتشريعات المدنية ، وتشريعات الأسرة . وسائر التشريعات التي يتضمنها هذا المنهج ، ليس هناك من هدف إلا تحقيق معنى " العبادة " في حياة الإنسان، والنشاط الإنساني لا يكون متصفًا بهذا الوصف، محققًا لهذه الغاية - التي يحدد القرآن أنها هي غاية الوجود الإنساني - إلا حين يتم هذا النشاط وفق المنهج الرباني، فيتم بذلك إفراد الله - سبحانه - بالألوهية، والاعتراف له وحده بالعبودية، وإلا فهو خروج عن العبادة لأنه خروج عن العبودية ، أي خروج عن غاية الوجود الإنساني كما أرادها الله ، أي خروج عن دين الله! .

وأنواع النشاط التي أطلق عليها الفقهاء اسم "العبادات" حين تراجع في مواضعها في القرآن ، يتبين أنها لم تجيء مفردة ولا معزولة عن أنواع النشاط الأخرى التي أطلق عليها الفقهاء اسم " المعاملات " إنما جاءت هذه وتلك مرتبطة في السياق القرآني ، باعتبار هذه كتلك شطرًا من منهج " العبادة " التي هي غاية الوجود الإنساني ، وتحقيقًا لمعنى العبودية ، ومعنى إفراد الله سبحانه بالألوهية .

إن ذلك التقسيم - مع مرور الزمن- جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا " مسلمين " إذا هم أدوا نشاط " العبادات " وفق أحكام الإسلام بينما يزاولون كل نشاط " المعاملات " وفق منهج آخر لا يتلقونه من الله ولكن من إله آخر! هو الذي يشرع لهم في شؤون الحياة ما لم يأذن به الله! .

وهذا وهمٌ كبيرٌ ، فالإسلام وحدةٌ لا تنفصم، وكل من يفصمه إلى شطرين- على هذا النحو- فإنما يخرج من هذه الوحدة ،و يخرج من هذا الدين ، وهذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يلقي باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه، وغاية وجوده الإنساني "[١].

٣- قيامها على الإخلاص لله والمتابعة لرسوله ﷺ:

فالعبادة في الإسلام تقوم على ركيزتين أساسيتين هما : الإخلاص والتجرد الكامل لله سبحانه وتعالى والانقياد له وحده ، بحيث لا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى ، وجاء به الرسول ﷺ[٢].

٤- غنى الله عن عبادة الخلق له ، وإنما أوجبها عليهم لحكمة :

" فالله سبحانه وتعالى غنى عن عبادة الخلق، وعباداتهم لا تزيد في ملكة شيئًا، كما أن تركهم عبادته لا تنقص من ملكه شيئًا فالله هو الغني الحميد". [٣]

وإنما اوجب الله العبادة على الخلق لحكم ومعانٍ جليلة فيها سعادتهم في الدنيا والآخرة ، والناس لا يملكون أن يعيشوا غير متدينين! لا بد للناس من دينونة ، والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله ، في كل جانب من جوانب الحياة! .

ففي العبودية لله وحده تحريرًا للعباد من عبودية العباد ، وتحقيقًا لكرامتهم عندما لا يذلون لأحد من الخلق "[٤] .

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٦- ١٩٣٧ بتصرف و خصائص التصور الإسلامي ص ١٢٩ -١٣٠ ومقومات التصور الإسلامي ص ١٣٦ وما بعدها .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٤٠ ، ١٣٢٠ ، ١٦٤٢ ، ٦/ ٣٣٨٧ ، ٣٩٥٢ .
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٣٧ وينظر : ٢/ ٨٢٠ ، ٤/ ١٨٥٢ .
(٤) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٠-١٩٤٣ بتصرف ، وينظر ٢/ ٨٢١ .

" وبذلك استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات، والجهود المضنية التي بذلها الرسل- صلوات الله وسلامه عليهم- و استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان ... لا لأن الله في حاجه إليها ، فهو الغني – سبحانه وتعالى – عن العالمين ولكن لأن حياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا بها " (١).

٥- واقعيتها ومراعاتها للفطرة والطاقة الإنسانية :

يقول سيد : " فهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته ، ملحوظ فيه تلبيته تلك الفطرة ، وإطلاق هذه الطاقة ، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء.. " (٢).

رابعًا : أهمية العبادة ومكانتها في الدين والحياة :

بين – سيد– في مواضع متفرقة مكانة العبادة في الإسلام وأهمتها في حياة البشرية ومن ذلك :

١ــ أنها غاية الوجود الإنساني :

يقول سيد – رحمه الله – " فغاية الوجود الإنساني هي العبادة ، ويدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله " (٣) ، " إن غاية الحياة الإنسانية كما يقررها الله – سبحانه–هي عبادة الله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٤)، هذه العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني تتمثل في وظيفته التي خلق لها وهي الخلافة عن الله في هذه الأرض بهدى الله " (٥).

٢ــ أنها مقتضى الألوهية :

يقول سيد : " إن مقتضى الاعتراف بألوهية الله وحده ، الدينونة له وحده

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٠٣ ، ١٩٣٦ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٤٤٦ .
(٣) المصدر السابق ١/ ١٨٩ .
(٤) سورة الذاريات : الآية ٥٦.
(٥) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٧٩ ، في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٨٧ .

والاستسلام لهذه الألوهية بحيث لا يبقى معه شيء في نفوس العباد ولا في حياتهم خارجا عن سلطان الله "[١]. " فالعبادة لله ناشئه عن الاعتقاد بألوهيته سبحانه ، فلا عبادة إلا لله ولا استعانة إلا بالله" [٢].

٣ـ أنها ترفع قيمة الحياة الإنسانية وتحقق الصلاح والخير للبشرية :

يقول سيد : " إن توحيد العبادة لله – سبحانه– يجمع الكينونة الإنسانية ويردها إلى مصدر واحد ، يجمعها شعورًا وسلوكًا ، وتصورًا واستجابة ، في كل شؤون الحياة ، فلا تتفرق ولا تتمزق ، بل تعيش في تناسق مع الكون والوجود ، وتكمن أهمية هذه الحقيقة في : تصحيح التصور الإيماني، وفي حسن تذوق الحياة ، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق، فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله ، وحين يصبح كل نشاط فيها صغر أم كبر جزءًا من هذه العبادة، أو كل العبادة، وفي هذا المقام يتحقق الكمال الإنساني المنشود "[٣].

"وحين يرتفع الإنسان إلى هذه الأفق ،أفق العبادة أو أفق العبودية ويستقر عليه، فان نفسه تأنف حتما من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة ..لأن الوسيلة الخسيسة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم... ومن ثم يستمتع العبد العابد براحه الضمير، وطمأنينة النفس، وصلاح البال في جميع الأحوال" . [٤]

" ومتى استقامت الأمة المسلمة على العبادة ، استقام ضميرها ، واستقامت حياتها ، ونهضت بالتبعة الشاقة " [٥].

٤ـ أنها مفرق الطريق بين تحرير البشرية وعبوديتها لغير الله :

" أن تضرع العباد وإعلان عبوديتهم لله إنما يصلحهم ، ويصلح حياتهم ومعاشهم كذلك ، فمتى أعلن الناس عبوديتهم لله تحرروا من العبودية لسواه ، تحرروا من العبودية للشيطان الذي يريد ليغويهم ، وتحرروا من شهواتهم وأهوائهم ، وتحرروا

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٩ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ١/ ٢٥ بتصرف.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٨ -١٩٣٩ بتصرف .
(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٣٨٨-٣٣٨٩ بتصرف.
(٥) المصدر السابق ٣/ ٢٤٤٥ .

من العبودية للعبيد..." . (١)

" فالحياة البشرية لا تبلغ مستوى الكرامة الذي يريده الله للإنسان إلا بأن يعزم البشر أن يدينوا لله وحده ، وأن يخلعوا من رقابهم نير الدينونة لغير الله ، ذلك النير المذل لكرامة الإنسان في أية صورة قد كان! " . (٢)

" إن العبودية لله وحده تطلق الناس أحرارًا كرامًا شرفاء أعلياء ، والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم ، ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية " . (٣)

٥ـ أنها تحفظ الإنسان من الشيطان :

" فمتى اتصل القلب بالله ، واتجه إليه بالعبادة ، متى ارتبط بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، متى أيقظ في روحه النفخة العلوية فأشرقت وأنارت ، فلا سلطان حينئذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله ... فالشيطان يستذل عبيده ، لكنه لا يجرؤ على عباد الرحمن ، فما له عليهم من سلطان " (٤).

خامسًا : أضرار العبودية لغير الله :

تحدث سيد - رحمه الله - كثيرًا عن أضرار وآثار العبودية لغير الله في أي صورة من صور العبودية ، وأوضح: " أنه لابد من عبودية ! فإن لم تكن لله وحده تكن لغير الله ، والعبودية لله وحده تطلق الناس أحرارا، كرما ، شرفاء ، والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم، ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية " (٥).

" والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله، في كل جانب من جوانب الحياة! ، إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط ، ومن ثم يفقدون خاصيتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة :﴿إِنَّ

(١) المصدر السابق ٣/ ١٣٣٧ بتصرف .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٥٣ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٣ وينظر : ٢/ ٨٢٠ ، ٤/ ١٩٣٩ - ١٩٤٠ .
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٩ .
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٣ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [1] ولا يخسر الإنسان شيئًا كأن يخسر آدميته ، ويندرج في عالم البهيمة، ثم هم يقعون فرائس لألوان من العبودية للعبيد، يقعون في شر ألوان العبودية للحكام والرؤساء الذين يصرفونهم وفق شرائع من عند أنفسهم لا ضابط لها ولا هدف إلا حماية مصالح المشرعين أنفسهم، سواء تمثل هؤلاء المشرعون في فرد حاكم ، أو في طبقة حاكمة ، أو في جنس حاكم ...

إن الدينونة لغير الله توقع الإنسان في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي والتي تقدم فيها النذور والأموال وأحيانا الأولاد أضاحي لغير الله ... ويعيش معها الناس في رعب من الأرباب الوهمية والسحرة والمشايخ والقديسين والجن .. حتى تتقطع أعناقهم وتتوزع جهودهم ، وتتبدد طاقاتهم في مثل هذا الهراء!، وتجيء أخيرًا تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية ، وما من أضحية يقدمها عابدُ الله لله ، إلا ويقدم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة! من الأموال والأنفس والأعراض ، وتقام أصنام من " الوطن " ومن " القوم " ومن " الجنس " ومن " الطبقة " ومن " الإنتاج "... ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب .

وتدق عليها الطبول، وتنصب لها الرايات، ويُدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد ، وإلا فالتردد هو الخيانة، وهو العار، وحتى حين يتعارض العِرض ، مع متطلبات هذه الأصنام يضحى بالعرض والشرف ...

والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد في سبيل الله وعبادته وحده عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد ، وفوقها الأخلاق والأعراض وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار!.." [2].

" إن عبودية الناس لغير الله سبحانه تنشئ في نفوسهم الذلة وقد أراد الله أن يقيمها على الكرامة ، وتنشئ في الحياة الظلم والبغي وقد أراد الله أن يقيمها على القسط والعدل ، وتحول جهود الناس إلى عبث في تأليه الأرباب الأرضية والطبل

(١) سورة محمد : الآية ١٢ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٠ - ١٩٤٣ بتصرف .

حولها والزمر والنفخ فيها دائمًا لتكبر حتى تملأ مكان الرب الحقيقي ... فيظل عبَّادها المساكين في نصبٍ دائم "[١].

" إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده - مهما عظمت وشقت - أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت ! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق ! - إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته فهذه " الإنسانية " لا توجد والإنسان عبد للإنسان، وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟! .. وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان أخر به، ورضاه أو غضبه عليه ؟!.. وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما يشاء إنسان ؟!.

على أن الأمر لا يقف عند هذا ، بل إنه يهبط حتى يكلف الناس - في حكم الطواغيت - أموالهم التي لا يحميها شرع ، كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من تصورات وأفكار وأخلاق وعادات... ويكلفهم في النهاية أعراضهم ، حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت ، سواء في صورة غصب مباشر، أو في صورة تنشئتهن على مفاهيم تجعلهن نهبًا مباحًا.. أو غير ذلك ، والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت إنما يعيش في وهمٍ أو يفقد الإحساس بالواقع !

إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال..ومهما تكن تكاليف العبودية لله ، فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة ، فضلًا على وزنها في ميزان الله " .[٢]

سادسًا : انحراف مفهوم العبادة اليوم :

مدلول العبادة عند سيد قطب - رحمه الله- يعني : الدينونة الكاملة لله في كل شأن ، ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن ، وهو المدلول الذي تفيده اللفظة

(١) المصدر السابق ٤/ ١٨٦٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣١٩-١٣٢٠ بتصرف يسير ، وينظر : ٣/ ١٥٢١ .

في أصل اللغة ، والذي نص عليه رسول الله ﷺ نصًا، وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[1]، و"الشعائر التعبدية" أطلق عليها لفظ " العبادة " باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من شؤون الحياة ، صورة لا تستغرق مدلول " العبادة " بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة! .

ولكن الناس اليوم بهت مدلول " الدين " ومدلول " العبادة " في أنفسهم فصاروا يفهمون أن عبادة غير الله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله ، كتقديمها للأصنام والأوثان مثلًا! وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح " مسلمًا " لا يجوز تكفيره ! وتمتع بكل ما يتمتع به المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه وعرضه وماله ... إلى أخر حقوق المسلم على المسلم! .

وهذا وهمٌ باطل ، وانحسار وانكماش ، بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ " العبادة " التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه ، وهذا المدلول كما سبق – هو الدينونة الكاملة لله في كل شأن ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن "[2].

(١) سورة التوبة : الآية ٣١ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٠٢-١٩٠٣ بتصرف يسير ، مقومات التصور الإسلامي ص ١٣٤ وما بعدها.

المطلب الثالث

الحاكمية

تعتبر قضية " الحاكمية " من القضايا التي شغلت حيزًا كبيرًا في الفكر الإسلامي المعاصر، نظرًا لكونها أخطر القضايا التي تواجه الأمة المسلمة منذ سقوط الخلافة الإسلامية ، وقد أثارت هذه القضية جدلا معرفيًا وفكريًا واسعًا ، بين الإسلاميين الذين ينادون بتبني الإسلام عقيدة وشريعة والعودة إلى تعاليمه وتحكيمها في كل جوانب الحياة البشرية ، وبين خصومهم العلمانيين والملاحدة وغيرهم ممن يتبنى فكرة فصل الدين عن الحياة ، واتباع ما عليه غير المسلمين من نظم وقوانين لتسيير حياة الشعوب ، كما أثارت جدلاً بين اتجاهات الحركة الإسلامية المعاصرة ذاتها من جهة أخرى أيضًا .

ولكون سيد قطب – رحمه الله – من أبرز الدعاة الذين تكلموا عن " الحاكمية " كثيرا ، حيث شكلت هذه القضية منعطفًا حاسمًا في فكره وآراءه وأحكامه ، وركز كثيرا في كتابته على تحديد أبعاد هذا المصطلح ، وبلورة مفهومه في إطار المفاهيم العقدية الخالصة المرتبطة بقضايا التوحيد والإيمان والكفر ، بحيث يلاحظ القارئ لكتب سيد – رحمه الله – شيئا اسمه " توحيد الحاكمية " .

وبناءً على ذلك فقد وُجِهَ إلى سيد قطب – رحمه الله – كثيرٌ من النقد في موضوع – الحاكمية – سواءً من خصوم الإسلام – العلمانيين – وغيرهم ، أو من بعض المنتمين إلى الحركات الإسلامية المعاصرة .

وفيما يأتي بيان لقضية الحاكمية وموقف سيد قطب منها ، وذلك من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول : تعريف الحاكمية لغة واصطلاحًا :

أولًا :الحاكمية في اللغة :

الحاكمية لغة : على وزن فاعلية ، وهو من المصادر الصناعية ، ويقصد بالمصادر

الصناعية : كل لفظ زيد في آخره ياء النسب المشددة ، ثم تاء التأنيث المربوطة ، وتسمى تاء النقل، لأن الاسم قبل اتصالها به كان له حكم المشتق من أجل ياء النسب، ثم لما اتصلت به نقلته إلى الاسمية المحضة ، فصار يدل على معنى مجرد لم يكن يدل عليه من قبل الزيادة ، وهذا المعنى المجرد هو : مجموعة الصفات أو الأحكام أو القواعد الخاصة بذلك اللفظ [١]، ويعد المصدر الصناعي من المولد المقيس على كلام العرب .

ولفهم دلالة هذا المصطلح في اللغة واصطلاح الشرع : يرجع إلى جذره (ح . ك . م) .

حيث جاء في اللغة بعدة معان هي :

١- القضاء ، يقال : حكم بينهم : إذا قضى .

٢- المنع ، يقال : حكمت عليه بكذا : إذا منعته من خلافه .

٣- الفصل ، يقال : حكمت بين القوم : أي فصلت بينهم .

٤- الرد والرجوع : يقال حكم فلأن عن الأمر : إذا رجع .

٥- الإتقان ، يقال : أحكمه ، إذا أتقنه .

٦- التفويض ، يقال : حكَّمتُ الرجل بالتشديد ، إذا فوضت الحكم إليه .

٧- المحاكمة ، أي المخاصمة إلى الحاكم .

٨- الفعل حسب المراد : يقال تحكم فلأن في كذا ، إذا فعل ما رآه .

٩- الحِكْمَة ، وتأتي لعدة معان منها: العلم، والنبوة ، والفقه ، والقرآن، والفهم ، وغيرها [٢] .

---

(١) مثل كلمة " إنسان " فان معناها الأصلي للحيوان الناطق ، فان زيدت في آخره ياء مشدده وتاء التأنيث المربوطة " إنسانية " تغيرت دلالة اللفظ فأصبحت تشمل مجموعة من الصفات المختلفة التي يختص بها الإنسان،انظر:النحو الوافي،لعباس حسن: دار المعارف- مصر - ط ٤ ب.ت ،٣/ ١٨١ وما بعدها

(٢) ينظر المصادر الآتية : - القاموس المحيط للفيروز آبادي ٤/ ٩٨ وما بعدها .
- لسان العرب لابن منظور ١٢/ ١٤٠، ١٤٥.
- المفردات للراغب الأصفهاني ص١٢٦.
- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير مطبعة أنصار السُّنَّة باكستان ب.ت ١/ ٤١٩

ومما سبق تظهر غزارة مادة الجذر اللغوي للحاكمية (ح .ك . م) في لغة العرب ، حيث يستعمل لعدة معان، وهذه المعاني لها أهمية في التأصيل لمفهوم الحاكمية باعتبار أن هناك علاقة ومناسبة بين المصطلح وبين المعنى اللغوي ، فالمعاني اللغوية تتأسس عليه الدلالات الشرعية في الأصول " القرآن والسُّنَّة " وتقوم عليه اصطلاحات أصحاب العلوم والفنون المختلفة [١].

ثانيًا : الحاكمية في الأصول الشرعية " القرآن والسُّنَّة " :

أما القرآن الكريم : فقد ورد جذر الحاكمية (ح . ك . م) فيه دالًا على عدة معاني هي :

١ - القضاء والفصل في الخصومات والاختلاف بين الناس ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [٢].

٢ - الإحكام والإتقان ومنه قوله تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [٣].

٣- الفهم والفقه والعقل والعلم : ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [٤]، وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [٥].

٤ - الوضوح والإبانة : ومنه قوله تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [٦].

٥-النبوة والرسالة:ومنه قوله تعالى:﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [٧]، وقوله تعالى﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [٨].

---

(١) انظر : الحاكمية في الفكر الإسلامي ،د. حسن لحساسنه ، كتاب الأمة ، قطر ، العدد ١٢٨، سنة ١٤٢٨هـ ص ٣١ وما بعدها .

(٢) سورة غافر: الآية ٤٨، وينظر: سورة البقرة: الآية ١١٣ والمائدة: الآية ٥٠ والنور: ٤٨ والزمر: الآية ٣٠، ٤٦.

(٣) سورة هود: الآية ١ .

(٤) سورة القصص: الآية ١٤.

(٥) سورة الأنعام : الآية ٨٩ ، وينظر:سورة البقرة : الآية ٢٦٩ وسورة مريم : الآية ١٢١ .

(٦) سورة آل عمران: الآية ٧ وينظر: سورة محمد: الآية ٢٠.

(٧) سورة الشعراء: الآية ٨٣.

(٨) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

٦- القرآن الكريم : ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾[١].

٧- السُّنَّة النبوية : ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾[٢].

٨- العظة والعبرة: ومنه قوله تعالى:﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾[٣].

٩- القضاء والقدر: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾[٤].

١٠- التحليل والتحريم: ومنه قوله تعالى : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[٥].

١١- الحكم بالمفهوم السياسي : ومن ذلك :

أ- التحاكم إلى غير شرع الله كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾[٦] وقوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[٧]، والحكم بما أنزل الله والتحاكم إليه يقتضي وجود سلطه بيدها الأمر والإلزام .

ب- ولاة الأمور: ومنه قوله تعالى﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾[٨] ويقصد بالحكام من بيدهم السلطة السياسية أو القضائية وهي سلطات سياسية .

ج- الشريعة : ومنه قوله تعالى:﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ

---

(١) سورة الرعد: الآية ٣٧.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٤.
(٣) سورة القمر: الآية ٥.
(٤) سورة الرعد: الآية ٤١.
(٥) سورة يوسف: الآية ٤٠ .
(٦) سورة النساء: الآية ٦٠ .
(٧) سورة المائدة : الآية ٤٤ .
(٨) سورة البقرة : الآية ١٨٨ .

أَللَّهِ ﴾ (١)، أي: شريعته (٢).

أما في السُّنّة الشريفة: فقد ورد لفظ الحكم ومشتقاته في عدد من الأحاديث منها:

١- قوله ﷺ: " إن الله هو الحكم وإليه الحكم " (٣).

٢- قوله ﷺ: " ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها " (٤).

٣- قوله ﷺ في دعائه من الليل: " وبك خاصمت، واليك حاكمت " (٥).

٤- قوله ﷺ لسعد رضي الله عنه: " لقد حكمت فيهم بحكم الله -عز وجل- من فوق سبع سماوات " (٦)، وغيرها من الأحاديث وهي في الجملة لا تخرج عن المعاني التي جاءت في القران الكريم.

أما في اصطلاحات أصحاب الفنون والعلوم: فان للفظ دلالاته الخاصة:

عند الفقهاء: يستعمل الحكم على عدة أوجه:

١- الحكم: بمعنى الأثر: الذي يقتضيه خطاب الشرع كالوجوب والحرمة والإباحة.

٢- الحكم: بمعنى الوصف المترتب على الأثر كالصحة والفساد واللزوم ونحوها (٧).

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٣.

(٢) ينظر في معاني الحكم في القران:
- إصلاح الوجوه والنظائر للدامغاني، دار العلم، بيروت، ط١٩٨٥م، ص ١٤٢.
- المفردات للراغب ص ١٢٦ وما بعدها.
- معجم ألفاظ القران - مجمع اللغة العربية - القاهرة طبعة ١٤٠٩، ١/ ٣١١ وما بعدها.
- الحاكمية في الفكر الإسلامي د. حسن لحساسنه ص (٣٧ وما بعدها.

(٣) رواة: أبو داود ٤/ ٢٨٩ برقم ٤٩٥٥ والنسائي ٨/ ٢٢٦ والبيهقي ١/ ١٤٥ وصححه الألباني في الجامع برقم ١٨٤١ وأوراد الغليل ٨/ ٢٣٧

(٤) رواة: البخاري، في العلم باب الإغتباط في العلم ١/ ٤٠ برقم ٧٣، ومسلم في صلاة المسافرين ١/ ٤٦٨ برقم ٨١٦

(٥) رواة: البخاري في التهجد ١/ ٣٧٧ برقم ١٠٦٩، ومسلم ١/ ٤٤٨ برقم ٧٦٩

(٦) رواة: البخاري في الجهاد باب إذا نزل العدو على حكم رجل ٣/ ١١٠٧ برقم ٢٨٧٨، ومسلم في الجهاد باب جواز قتل من نقض العهد ٣/ ١١١٣ برقم ١٧٦٨.

(٧) نظرية الإباحة عند الأصوليين لمحمد سلام مدكور، ص ٣٦.

عند الأصوليين : يقسم الأصوليون الحكم إلى أربعة أقسام :

١ - الحكم:وهو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع.

٢ - المحكوم فيه : وهو فعل المكلف .

٣- المحكوم عليه : وهو المكلف .

٤ - الحاكم : وهو الله تعالى أو الشرع بعد البعثة وبلوغ الدعوة . [١]

ج- عند المناطقه : يطلق الحكم على شيئين :

١ - إدراك أن النسبة واقعة أو ليست واقعة ،وهذا ما يرادف التصديق .

٢ - إثبات شيءٍ بشيءٍ أو نفيه عنه [٢] .

د- عند السياسيين :

يقصد بالحكم والحكومة : الهيئة الحاكمة التي تتولى تنظيم شؤون الدولة وتمثل السلطة المهيمنة فيها [٣] .

ومما سبق عرضه يظهر لنا: أنه بالنظر إلى جذر مصطلح الحاكمية (ح .ك .م) في اللغة والشرع والاصطلاح ، نجد أن لهذا اللفظ دلالاته الكثيرة في اللغة وهي الأصل في معرفة معناه ، وان استخدام الشرع لهذا المصطلح أضاف إليها معاني جديدة مؤسسة على المعنى اللغوي ، وكذلك اصطلاح أصحاب الفنون المختلفة لم يخرج في جملته عن المعنى اللغوي والشرعي مما يدل على غزارة معاني هذا اللفظ وتنوع استعمالاته حسب ما يضاف إليه

والبحث في مصطلح : " الحاكمية " في الفكر الإسلامي اليوم ينطلق من ثلاثة مداخل هي :

---

(١) انظر : إرشاد الفحول للشوكاني : دار الفكر – بيروت – ب ت ص ٦ ، ومذكرة أصول الفقه للشنقيطي ص ٧ ،والحاكمية في الفكر الإسلامي د. حسن لحساسنه ص ٥٧ – ٥٨ .

(٢) الحاكمية في الفكر الإسلامي د . حسن لحساسنه ص ٦٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٠ .

١- المدخل العقدي : " فالحاكم في الإسلام هو الله" [١] وبحث مفهوم الحاكمية في هذا المدخل ينبغي أن يكون عقديًا من خلال النصوص الشرعية باعتبار أن الحاكمية من خصائص الألوهية .

٢- المدخل السياسي : من خلال بحث نظرية السيادة والتي تتعلق بالقوانين واللوائح والسلطات التي لها السيادة والحاكمية على غيرها والتي تضبط وتنظم العلاقات في الدولة .

٣- المدخل الفكري : وذلك من خلال النظر إلى دور العقل ووظيفته وعلاقته بالنقل ومجالات استعمال العقل، بمعنى هل الحاكمية للنقل أم للعقل ؟ " . [٢]

وبناء على ما سبق : يمكن أن نحدد المقصود بمصطلح الحاكمية في بحثنا هذا بأنه :" قضية الحكم والتشريع وما يتعلق بها من مسائل وأبحاث" .

ثالثًا : الحاكمية في الفكر الإسلامي : بين الخوارج والمرجئة وأهل السُّنَّة :

١ـ الخوارج وفكرة الحاكمية :

يرى بعض الباحثين أن مصطلح " الحاكمية " ظهر في عهد الخوارج وأنهم أول من تكلم به ، وذلك أنه لما قَبِلَ علي – رضي الله عنه – بتحكيم الحكمين في "صفين" قال الخوارج : " أتحكمون في دينَ الله الرجال ؟ لا حكم إلا لله ، فسموا " المحكمية "، وما ترتب على ذلك عندهم من تكفير لعلي ومعاوية – رضي الله عنهما – ولمن معهما [٣] . وكان مستندهم في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[٤].

ومع أن هذه الآية إحدى النصوص الشرعية التي تقوم عليها فكرة الحاكمية في الفكر الإسلامي، إلا أن تفسير الخوارج وتأويلهم لها كان خاطئًا ، حيث قصدوا منها نفي سلطان البشر في تسيير الأمور الدنيوية ونفي أن يكون للناس أمير ،

(١) أصول الفقه الإسلامي : محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي – القاهرة – ب. ت – ص ٦٣ .
(٢) الحاكمية في الفكر الإسلامي د . حسن لحساسنه ص ٧٠-٧٢ بتصرف .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير دار المؤيد – الرياض ، ط٢ ،عام ١٤١٧ هـ ، ٧/ ٢٩٤ وما بعدها ، والملل والنحل للشهرستاني ص ١١٤ – ١١٥، والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٤٥– ٤٦ .
(٤) سورة يوسف : الآية ٤٠ .

ولهذا قال علي - رضي الله عنه - :" كلمة حق أريد بها باطل " [١] ، وبالتالي أساء الخوارج فهم مصطلح " الحاكمية " وأساؤا أيضا توظيفه في الواقع مما نتج عنها كثير من المخالفات التي شوهت حقيقة هذا المصطلح [٢] .

٢ـ المرجئة وفكرة الحاكمية :

المرجئة اسم أطلق على من يرجئ - يؤخر - العمل عن الإيمان، حيث يرون أن الإيمان هو تصديق القلب وقول اللسان ، وأما العمل فلا يدخل في مسمى الإيمان، لذا فإنه لا يكفر عندهم من نطق بالشهادتين مهما عمل وبالتالي فلا يرون كفر من حكم بغير ما أنزل الله ، بل يجعلونه من الكفر الأصغر على اعتبار أن الكفر العملي هو كفر اصغر [٣] ، وقولهم هذا يقود إلى الاستخفاف بالأمر والنهي والتحلل من الشرع ، وقد رد عليهم أهل السُّنَّة والجماعة بردود مفصلة ، ليس هذا مجال سردها [٤] .

٣ـ أهل السُنَّة والجماعة وفكرة الحاكمية :

إن مصطلح " الحاكمية " أو " توحيد الحاكمية " وان كان من المصطلحات الحادثة ، إلا أنه لا محذور من استعماله إذا لم يتضمن معنى فاسدًا ، فإذا تضمن ذلك كان اللفظ صحيحًا والقصد فاسدًا وذلك لأن العبرة بالمعاني لا بالمباني ، و الأمور بمقاصدها ، والسلف لم يذموا المصطلحات الحادثة عند أهل الكلام وغيرهم لأنها حادثة ، بل لما اشتملت من الباطل ، أما ما كان معناه موافقًا لما في الكتاب والسُّنَّة فلا محذور في استخدامه وإن كان حادثًا [٥] .

ولذلك فإن أمير المؤمنين علي- رضي الله عنه - لما قال له الخوارج: " لا حكم إلا لله" وكان قصدهم فاسدًا ، قال مقولته المشهورة : " كلمة حق أريد بها باطل " . ومعنى ذلك : أن الكلمة أصلها صدق ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾، لكنهم أرادوا بها الإنكار

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب التحريض على قتل الخوارج ٢/ ٧٤٩ برقم ١٠٦٦ .

(٢) الحاكمية في الفقه الإسلامي د. حسن لحساسنه ص٩٩ وما بعدها .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٥٤٣ ، ودرء تعارض العقل والنقل ١/ ٧ ، والشرك بالله تعالى أنواعه وأحكامه - ماجد شبالة ص ٨٨٦ .

(٤) ينظر : درء تعارض العقل والنقل ، لابن تيمية ،١ / ٤٣ -٤٥ .

(٥) درء تعارض العقل والنقل ، لابن تيمية ،١ / ٤٣ -٤٥ . ١/ ٤٣ ، ٤٥ .

عليه- رحمه الله - في تحكيمه [١] .

وبناء على ما سبق : فإذا كان المراد بمصطلح الحاكمية هو إفراد الله - سبحانه وتعالى - بالحكم القدري والشرعي ، بأن يعتقد العبد أن الحكم لله وحده لا شريك له بقسميه الحكم الكوني المتمثل بالخلق والإيجاد والتدبير ، والحكم الشرعي المتمثل بانفراده - سبحانه - بحق الأمر والنهي والتشريع والتحليل والتحريم ووضع التشريعات ، وما يترتب على ذلك من وجوب الانقياد لحكم الله وشرعه وطاعته، والتحاكم إليه والكفر بما سواه مما يخالفه ، واعتبار شريعة الله هي المرجعية العليا، ولها السيادة المطلقة في كل شؤون الحياة البشرية ، والاستمداد منها ، والتحاكم إليها والرد عند التنازع إليها ، والرضى والتسليم بها . فلا شك ولا ريب أنه عين ما جاءت به النصوص الشرعية في الكتاب والسُّنَّة وقام عليه إجماع الأمة .

وذلك : لأن أهل السُّنَّة والجماعة :

- يرون أن الحكم بما أنزل الله والتحاكم إليه فرضٌ أوجبه الله على العباد وجعله الغاية من تنزيل الكتاب، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [٢] .

- ويرون اختصاصه - سبحانه- وتفرده بالحكم لقوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ [٣] ، وقوله: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [٤] ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [٥] ، وغيرها .

- ويرون أن الحكم بما أنزل الله و التحاكم إليه من صفات المؤمنين ، وأن التحاكم إلى غير ما أنزل الله والحكم به من صفات المنافقين وهو حكم الطاغوت والجاهلية لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي دار المعرفة - بيروت ، ط٣ عام ١٤١٧ هـ ٧/ ١٧٣ .
(٢) سورة النساء : الآية ١٠٥ .
(٣) سورة الأنعام : الآية ٥٧ .
(٤) سورة يوسف : الآية ٤٠ .
(٥) سورة الشورى : الآية ١٠ .

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ (٦) .

- ويرون أن " توحيد الحاكمية " له تعلق بأقسام التوحيد وبأصل الإيمان وحقيقة الإسلام .

- ويرون وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه ..

- ويحذرون من مفاسد الحكم بغير ما أنزل الله وضرره على الأمة في الدنيا والآخرة ، وهم كما رأينا يستندون في كل ما سبق على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثالثًا : الحاكمية في فكر سيد قطب- رحمه الله - :

يعتبر سيد- رحمه الله- أبرز من تكلم عن مفهوم الحاكمية في العصر الحديث هو وأبو الأعلى المودودي-رحمه الله- حيث طرح المودودي فكرة الحاكمية في إطار مشروع تأسيس دولة باكستان الإسلامية وصياغة دستورها وإعطاء البدائل السياسية والقانونية والدستورية للنظريات الغربية التي كانت سائدة في البلاد ومهيمنة على الحكومات ، بينما طرح سيد قطب - رحمه الله - فكرة الحاكمية في إطار ما سماه بمواجهة " الجاهلية المعاصرة " .

حيث يرى أن قضية الحكم من أهم قضايا العقيدة والإيمان ، فإما إسلام وإما جاهلية لا وسط في هذا الأمر، وعلى هذا الأساس اعتبر سيد - رحمه الله - أن الحاكمية صفة ملازمة لمبدأ الألوهية ، فمن ادعاها فقد نازع الله في ألوهيته ، واغتصب سلطانه ، وبناءً على هذا فقد دعا بقوة إلى رد الحاكمية لله والتمرد على حاكمية الطواغيت المختلفة .

- وفكرة الحاكمية عند سيد قطب-رحمة الله-من القضايا التي أُسيء فهمها كثيرًا وأثيرت حواها الشبهات ، وحُمِّلت أكثر مما أراد منها -سيد- فهما وتطبيقًا ،

(٦) سورة النساء : ٦٠-٦١ .

- لهذا كان لابد من عرض قضية الحاكمية في فكر سيد قطب من خلال فهمه وكتاباته، والنظر بعد ذلك في مدى صحة أو خطاء ما أثير حولها ، وذلك فيا يأتي :

١ - مفهوم الحاكمية عند سيد قطب :

أكثر سيد قطب من إيراد مصطلح "الحاكمية" في كتبه الإسلامية ، حيث تناولها في كتاب " السلام العالمي والإسلام" [١] و"الإسلام ومشكلات الحضارة"[٢] و"ودراسات إسلاميه" [٣] و"هذا الدين" [٤]. و "المستقبل لهذا الدين"[٥] و"خصائص التصور الإسلامي ومقوماته"[٦] و" نحو مجتمع إسلامي " [٧] ، وكذا في كتاب "الظلال" أثناء حديثه عن الألوهية والربوبية ، والعقيدة الإسلامية ، والحكم والسلطة والأنظمة والمناهج ، وأثناء تفسيره للآيات التي تتحدث عن تلك الموضوعات .

وهو في حديثه عن الحاكمية لا يعالجها من فراغ ، ولا من جهل بالإسلام أو حتى بالتيارات المخالفة ، أو عن رأي له، فالأمر كما يقول: " أكبر من أن يُفتى فيه بالرأي " [٨] . ويشير أيضا إلى معرفته بالجاهلية على حقيقتها وانحرافها من خلال اطلاعه على معظم حقول المعرفة الإنسانية خلال ٤٠ عامًا من حياته .[٩]

ومن خلال جمع كلامه عن الحاكمية من مواطنه المتعددة نستطيع القول بأن مصطلح الحاكمية عند سيد قطب يعني : إفراد الله وحده بالحكم والتشريع والقوامة والسلطان ، واستمداد كل التشريعات والمناهج والنظم منه - سبحانه- وحده ، وتطبيق شريعته على كافة مناحي الحياة.

---

(١) انظر: السلام العالمي والإسلام سيد قطب ،ص١٣ـ٣٨ومواضع أخرى من الكتاب .
(٢) انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة ،سيد قطب ، ص٢٥ـ٣٤و١٨٧ـ١٩٩.
(٣) انظر: دراسات إسلامية، سيد قطب، ص١٦ـ١٨ و٣٩ـ٤٣و٨١ـ٩٢.
(٤) انظر: هذا الدين ، سيد قطب، ص١٧ـ ٢٨ و٣٤ -٣٥ .
(٥) المستقبل لهذا الدين، سيد قطب ، ص٧ـ٢٣و٧٦ وما بعدها.
(٦) خصائص التصور الإسلامي، ص ٧٩و١٩٠، ١١٤، ٨٨، ٢٠٧، ومقومات التصور الإسلامي ، ص١٥ - ٤٠ ، ١٠٩ - ١٨٨ ، ٢٨٢ - ٢٩٤ .
(٧) نحو مجتمع إسلامي، ص١٥٠ومابعدها.
(٨) مقومات التصور الإسلامي ، ص١٤٧، ومعالم في الطريق ، ص١٤٤.
(٩) معالم في الطريق ص١٤٣.

٢- جوانب الحاكمية عند سيد قطب : للحاكمية عند سيد قطب جانبان هما :

الأول: الحاكمية التكوينية : وتتمثل في دينونة العباد لربهم في الجانب القدري القهري من حياتهم ، فالله وحده له الحكم القدري الكوني خلقا وتقديرا .

الثاني: الحاكمية التشريعية : وتمثل في دينونة العباد لربهم في الجانب الإرادي من حياتهم ، فالله وحده صاحب الحق التشريعي، فهو الحاكم المشرع المنفرد بإنشاء الأمر والنهي والأحكام ، المختص بالتحليل والتحريم ووضع القيم و التصورات عن الإله والكون والحياة والإنسان ، وما يتبع ذلك من وجوب الانقياد لله تعالى والطاعة لشرعه وأحكامه في كل جوانب الحياة [١] .

وفيما يأتي بعض النصوص من كلام - سيد -عن جوانب الحاكمية في الإسلام :

أ – **يقول –رحمه الله** -: " وفي السورة –أي سورة يوسف ـ تعريف بخصائص الألوهية ، وفي مقدمتها "الحكم" ، وهو يرد مرة على لسان يوسف –عليه السلام– ـ بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم وطاعتهم الإرادية ، ويأتي مرة على لسان يعقوب –عليه السلام– – بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم لله في صورتها القهرية القدرية ، فيتكامل المعنيان في تقرير مدلول الحكم وحقيقة الألوهية على هذا النحو الذي لا يجيء عفوًا ولا مصادفةً أبدًا.

يقول يوسف– عليه السلام – في معرض تفنيد ربوبية الحكام في مصر وبيان مخالفتها لوحدانية الألوهية ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ [٢].

ويقول يعقوب في معرض تقرير أن قدر الله نافذ وأن قضاءه ماض : ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [٣] .

---

(١) في ظلال القران في الميزان ، د/ صلاح ألخالدي ، ص ١٧٣ والحاكمية في الفكر الإسلامي د/ حسن لحساسنه ص ٧٤ وما بعدها.

(٢) سورة يوسف : الآية ٣٩-٤٠ .

(٣) سورة يوسف الآية ٦٧ .

وهذا التكامل في مدلول الحكم يشير إلى أن الدين لا يستقيم إلا أن تكون الدينونة الإرادية لله في الحكم ، كالدينونة القهرية له – سبحانه– في القدر ، فكلاهما من العقيدة ، وليست الدينونة في القدر القاهر وحدها الداخلة في نطاق الاعتقاد ، بل الدينونة الإرادية في الشريعة هي كذلك في نطاق الاعتقاد " [١] .

ب- يقول أيضا: " إن الحكم إلا لله ، فهو مقصور عليه– سبحانه – بحكم ألوهيته، إذ الحاكمية من أخص خصائص الألوهية ومن ادعاها فقد نازع الله أولى خصائص ألوهيته.. ويكون ذلك بتنحية شريعة الله عن الحاكمية واستمداد القوانين من مصدر أخر، وتقرير أن الجهة التي تملك الحكم – أي التي تكون هي مصدر السلطات – جهة أخرى غير الله سبحانه ، فالعبادة – أي الدنيوية – لا تقوم إذا كان الحكم لغير الله سبحانه ، وسواء في هذا حكمه القدري القهري في حياه الناس وفي نظام الوجود ، وحكمه الشرعي الإرادي في حياه الناس خاصة ، فكله حكم تتحقق به الدينونة " [٢] .

ج –ويقول أيضا : " إن الألوهية تعني : الحاكمية العليا وتوحيد الألوهية وإفراد الله – سبحانه – بها وهذا معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ورده إلى الله ، السلطان في المال والسلطان في القضاء ، والسلطان في الأرواح والأبدان، إن " لا إله إلا الله" ثورة على السلطان الأرضي الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية ، وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة هذا الاغتصاب، وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله ... " [٣] .

٣- علاقة الحاكمية بالعقيدة عند سيد قطب :

يرى سيد – رحمه الله– أن قضية الحاكمية من أخص خصائص الألوهية والربوبية ، ومن أهم قضايا التوحيد والإيمان، ولذا نجده كثيرًا ما يربط بين العقيدة

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٦٧-١٩٦٨ .

(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٩٠-١٩٩١بتصرف

(٣) معالم في الطريق ص ٢٦ بتصرف .وينظر : في ظلال القران :١/ ٣١٩، ٣٧٩ و ٢/ ٦٨٨ ، ٦٩٠، ٦٩٦، ٧٧١، ٨٢٦، ٨٢٨ و ٣/ ١١٧٩ ١٢٢٩ و٤/ ٢١١٤ ومقومات التصور الإسلامي ص١٤٧ .

والحاكمية ، بحيث شغلت عملية إعادة الربط بين العقيدة والحاكمية جانبًا كبيرًا من اهتماماته وتفكيره وكتاباته ، وخاصة في الأجزاء المنقحة من الظلال وكتبه الأخيرة ومن ذلك :

قوله - رحمه الله-: " إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل .. وحدود العقيدة أبعد كثيرًا من مجرد الاعتقاد الساكن . . إن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة . . وقضية الحاكمية بكل فروعها في الإسلام هي قضية عقيدة . كما أن قضية الأخلاق بجملتها هي قضية عقيدة . فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم، كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواءً بسواء . . "[1] .

ويقول في تعليقه على آيات سورة المائدة :" يتناول هذا الدرس أخطر قضية من قضايا العقيدة الإسلامية ، والمنهج الإسلامي ، ونظام الحكم والحياة في الإسلام.. وهي القضية التي عولجت في سورتي آل عمران والنساء من قبل.. ولكنها هنا في هذه السورة تتخذ شكلًا محددًا مؤكدًا، يدل عليها النص بألفاظه وعباراته ، لا بمفهومه وإيحائه ، إنها قضية الحكم والشريعة والتقاضي - ومِنْ ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان - ، والقضية في جوهرها تتلخص في الإجابة على هذا السؤال : أيكون الحكم والشريعة والتقاضي حسب مواثيق الله وعقوده وشرائعه التي استحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى، وكتبها على الرسل، وعلى من يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هداهم؟ أم يكون ذلك كله للأهواء... ؟ .

وبتعبير آخر: أتكون الألوهية والربوبية والقوامة لله في الأرض وفي حياة الناس؟ أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به الله؟..

والله -سبحانه- يقول : إنه لا هوادة في هذا الأمر ولا ترخص في شيء منه .. لأن المسألة - في هذا كله - مسألة إيمان وكفر، أو إسلام وجاهلية، وشرع أوهوى ..وهي مفرق الطريق بين ذلك كله ، وأنه لا وسط في هذا الأمر ولا هدنة ولا صلح ! فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله - لا يخرمون منه حرفًا ولا يبدلون

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٤ .

منه شيئًا ، والكافرون الظالمون الفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله" . [١]

ويقول أيضًا: " والعبودية المطلقة لله وحده هي الشطر الأول لركن الإسلام الأول، فهي المدلول المطابق لشهادة " أن لا إله إلا الله " ، والتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ هو الشطر الثاني لهذا الركن ، فهو المدلول المطابق لشهادة " أن محمدًا رسول الله " ، والعبودية المطلقة لله وحده تتمثل في اتخاذ الله وحده إلهًا، عقيدة وعبادة وشريعة ، فلا يعتقد المسلم أن الألوهية تكون لأحد غير الله - سبحانه - ولا يعتقد أن العبادة تكون لغيره من خلقه ، ولا يعتقد أن الحاكمية تكون لأحد من عباده "[٢].وهناك نصوص كثيرة في مواضع متفرقة.[٣].

وقد بين سيد - رحمه الله - السبب الذي جعله يتعرض كثيرًا لمسالة الحاكمية وربطها بالعقيدة بقوله: " ونحن نحتاج إلى هذا التذكير المستمر، لأن جهود الشياطين في زحزحة هذا الدين عن مفهوماته الأساسية ، قد آتت ثمارها - مع الأسف- فجعلت مسألة الحاكمية تتزحزح عن مكان العقيدة ، وتنفصل في الحس عن أصلها الاعتقادي ! ومن ثم نجد حتى الغيورين على الإسلام ، يتحدثون لتصحيح شعيرة تعبدية ، أو لاستنكار انحلال أخلاقي، أو لمخالفة من المخالفات القانونية ، ولكنهم لا يتحدثون عن أصل الحاكمية ، وموقعها من العقيدة الإسلامية! يستنكرون المنكرات الجانبية الفرعية، ولا يستنكرون المنكر الأكبر، وهو قيام الحياة في غير التوحيد، أي على غير إفراد الله - سبحانه - بالحاكمية .. إن الله قبل أن يوصي الناس أي وصية ، أوصاهم ألا يشركوا به شيئًا.." . [٤]

" إن هذا الدين شريعته كعقيدته ، إذ هي الترجمة الواقعية لها ، كما يتجلى ذلك من خلال النصوص القرآنية ..وهذه هي الحقيقة التي زُحزح مفهوم " الدين " في نفوس أهل هذا الدين عنها زحزحة مطردة خلال قرون طويلة ، بشتى الأساليب

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٨٧-٨٨٩ بتصرف .

(٢) معالم في الطريق : فصل " لا اله إلا الله " منهج حياة ص ٩٢ وما بعدها بتصرف .

(٣) ينظر كلام سيد حول الربط بين الحاكمية والعقيدة في ظلال القرآن : ١/ ٢١٧ ، ٢/ ٢٨٣ ، ٢٩٧ ، ٣٣١ ، ٦١٩/٢ ، ١٠٣٣ ، ١١٠٦ ، ٣/ ١١٨٤ ، ١٢١٦ ، ١٢٣٠ ، ٤/ ٢١١٤ ، ٢١٤٥ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٤٧ ، ١٨٨ ، معالم في الطريق ص ٢٦-٥١ .

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٣٠ وينظر أيضًا : ٤/ ١٩٤٥ ، ٢١١٤-٢١١٦ .

الجهنمية الخبيثة ، حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين - ودعك من أعدائه والمستهترين الذين لا يحفلون به - أن تصبح قضية الحاكمية في نفوسهم قضية منفصلة عن قضية العقيدة ! لا تجيش لها نفوسهم كما تجيش للعقيدة ! ولا يعدون المروق منها مروقًا من الدين ، كالذي يمرق من عقيدة أو عبادة ! وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة ، إنما هي الزحزحة التي زاولتها أجهزة مدربة ، قرونًا طويلة ، حتى انتهت مسألة الحاكمية إلى هذه الصورة الباهتة، حتى في حس أشد المتحمسين لهذا الدين : -

إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك ، ولا يحكمون على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك ، ويتحرجون من هذه ولا يتحرجون من تلك، إن هؤلاء لا يقرأون القرآن، ولا يعرفون طبيعة هذا الدين فليقرأوا القرآن كما أنزله الله، وليأخذوا قول الله بجد: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [١] .

هؤلاء...يؤذون هذا الدين من حيث لا يشعرون، بل يطعنونه بمثل هذه الاهتمامات الجانبية ، إنهم يفرغون الطاقة العقيدية الباقية في نفوس الناس في هذه الاهتمامات الجانبية ، و يؤدون شهادة بأن هذا الدين قائم فيها ، لا ينقصه ليكمل إلا أن تصحح هذه المخالفات، بينما الدين كله متوقف عن الوجود أصلا ، ما دام لا يتمثل في نظام وأوضاع ، الحاكمية فيها لله وحده من دون العباد .

إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله ، فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين، وإن مشكلة هذا الدين في الأرض اليوم لهي قيام الطواغيت التي تعتدي على ألوهية الله، وتغتصب سلطانه ، وتجعل لأنفسها حق التشريع بالإباحة والمنع في الأنفس والأموال والأولاد ... وهي القضية التي كان يواجهها القرآن الكريم ويربطها بقضية الألوهية والعبودية ، ويجعلها مناط الإيمان أو الكفر ، وميزان الجاهلية أو الإسلام.." . [٢]

" وما يزال أهل الكتاب يحاربون هذا الدين حربًا لا تهدأ ، وأشد هذه الحرب وأنكاها، هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب، إلى شرائع كتب أخرى من

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢١ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٦-١٢١٧ بتصرف .

صنع البشر وجعل غير الله حكماً " [١]. ويوضح - سيد- العلاقة بين الحاكمية وبين أنواع التوحيد والإيمان، فيقرر ارتباطها الوثيق بأنواع التوحيد وبقضية الإيمان والدين، ويعتبرها القضية التي يُبني عليها معقد التفرقة بين الإيمان والكفر وبين التوحيد والشرك .

فلا يتحقق توحيد الربوبية إلا بإفراد الله - عز وجل - بالخلق والأمر بقسيمة الكوني والشرعي ، وإفراده بالأمر الشرعي يقتضي الإقرار له وحده بالسيادة العليا والتشريع المطلق ، فلا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرمه ، ولا دين إلا ما شرعه ، فالمنازعة في الأمر الشرعي كالمنازعة في الأمر الكوني ولا فرق ، فأدنى درجات الرضى بالله ربا ، والتي ينجو بها المرء من الشرك تشمل الإقرار لله تعالى بالتفرد بالخلق والأمر، واعتقاد تفرد الله بالحاكمية والتحليل والتحريم والتشريع المطلق كما قال - سبحانه - : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٢] .

وللحاكمية صلتها أيضا بتوحيد الألوهية - العبادة - فإن إفراد الله بالعبادة يقتضي الطاعة والخضوع له - سبحانه - فيما أمر به وما نهى عنه ، ومعلوم أن التحاكم إلى ما أنزل الله والتزام ما فصل لعبادة من الحلال والحرام وسائر الشرائع صورة من صور العبادة ، لا يجوز أن تصرف إلى غير الله - سبحانه - لقوله تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [٣].

فتوحيد الحاكمية شعبه من شعب توحيد الألوهية .

وللحاكمية صلتها بالأسماء والصفات فان من أسماء الله - عز وجل - التي ذكرها في القرآن الكريم " الحكم ، والحاكم ، والحكيم " فلا يتم الإيمان بها إلا بإثباتها له وإفراده بها وذلك بالإيمان أن له وحده الحكم الشرعي والقدري والجزائي في الدنيا والآخرة دون سواه .

وللحاكمية صلة بتوحيد المتابعة للنبي ﷺ، فتحكيم شرع الله من مقتضى الشهادة للنبي ﷺ بالرسالة، فلا يتم الإيمان إلا بتحكيم الشرع الذي جاء به النبي ﷺ في كل

(١) المصدر السابق ٣/ ١١٩٤ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .
(٣) سورة يوسف : الآية ٤٠ .

شؤون الحياة ، مع الرضا والتسليم .

وللحاكمية صلتها بالإيمان ، فمن لم يسلم لله بحق الحاكمية فهو مناقض لأصل الإيمان، ومن أعطاها لغيره – سبحانه– فقد وقع في الشرك والكفر والنفاق .

وفيما يلي بعض النصوص لبيان علاقة الحاكمية بالتوحيد والإيمان عند سيد – رحمه الله - :-

١ – يقول– رحمه الله– : " إن قضية التشريع بجملتها مرتبطة بقضية الألوهية ، والحق الذي ترتكن إليه الألوهية في الاختصاص بتنظيم حياة البشر، هو أن الله هو خالق هؤلاء البشر ورازقهم ، فهو وحده صاحب الحق إذن في أن يحل لهم ما يشاء من رزقه وأن يحرم عليهم ما يشاء ، وهو منطق يعترف به البشر أنفسهم ، فصاحب الملك هو صاحب الحق في التصرف فيه ، والخارج على هذا المبدأ البديهي معتدٍ لا شك ! " . (١)

٢– يقول– رحمه الله – : " إن أخص خصائص الألوهية هي الحاكمية ، والذي يشرع لمجموعة من الناس يأخذ فيهم مكان الألوهية ويستخدم خصائصها ، فهم عبيده لا عبيد الله ، وهم في دينه لا في دين الله ...". (٢) " فالألوهية من خصائصها ومقتضاها الحاكمية التشريعية، ومن يحكم بغير ما أنزل الله يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب، ويدعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب أخر.. وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك؟ " (٣) ، " فالحاكمية في الأرض –كما هي في الكون كله – لله وحده ، والناس– حاكمهم ومحكومهم– إنما يستمدون سلطاتهم من تنفيذهم لشريعة الله ومنهجه ، وليس لهم – في جملتهم – أن يخرجوا عنها " (٤).

٣– ويقول : " فحقيقة التوحيد تستلزم مصداقًا لها في واقع الحياة البشرية ، ومن ثم يقرر القرآن الحقيقة الأولى–التوحيد– ليرتب عليها آثارها الملازمة لها ، فيبدأ

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٧٠.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٠ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٩٨ ، وينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ١٣٢ وما بعدها .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٣١٩.

بشهادة الله -سبحانه - ﴿ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وشهادة الملائكة وأولي العلم بهذه الحقيقة ، ويقرر معها صفة الله المتعلقة بالقوامة وهي قيامه بالقسط في أمر الناس وفي أمر الكون .

وما دام الله متفردًا بالألوهية وبالقوامة فإن أول مستلزمات الإقرار بهذه الحقيقة هو الإقرار بالعبودية لله وحده وتحكيمه في شأن العبيد كله، واستسلام العبيد لإلههم، وطاعتهم للقيوم عليهم ، وإتباعهم لكتابه ولرسوله ﷺ ويُضِّمن هذه الحقيقة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1]. فهو لا يقبل دينًا سواه من أحد ، والإسلام الذي هو الاستسلام والطاعة والإتباع ليس مجرد تصور في العقل، ولا تصديق في القلب ، إنما هو القيام بحق هذا التصديق وذلك التصور، هو تحكيم منهج الله في أمر العباد كله ، وطاعتهم لما يحكم به ، وإتباعهم لرسوله ﷺ في منهجه" [2].

٤- ويقول : " إن ردَّ الربوبية كلها لله - سبحانه- معناه رد الحاكمية كلها له ، فالحاكمية هي مظهر ربوبية الله للناس ، وهي تتجلى في العالمين كذلك بخضوعهم لله وحده ، فلا يكون الناس معترفين بربوبية الله لهم إلا إذا خضعوا له وحده ، وإلا إذا خلصت عبوديتهم لهذه الربوبية ، أو بتعبير أخر لهذه الحاكمية ، وإلا فقد أنكروا ربوبية الله لهم متى خضعوا لحاكمية أحد غيره لا يحكمهم بشرعة .." . [3]

٥- ويقول: " وشهادة " أن لا إله إلا الله " ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العُليا لله في حياة البشر، كما أن له الحاكمية العليا في نظام الكون سواء، فهو المتحكم في الكون والعباد بقضائه وقدره ، وهو المتحكم في حياة العباد بمنهجه وشريعته، وبناء على هذه القاعدة لا يعتقد المسلم أن لله شريكًا في خلق الكون وتدبيره وتصريفه، ولا يتقدم المسلم بالشعائر التعبدية إلاّ لله وحده ، ولا يتلقى الشرائع والقوانين، والقيم والموازين ، والعقائد والتصورات إلا من الله ، ولا يسمح لطاغوت من العبيد أن يدعي حق الحاكمية في شيء من هذا كله مع الله " [4].

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٦-٣٧٧ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٣٣٠ .

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٥٥-١٢٥٦ .

" ويحفل المنهج القرآن بالواقعيات العملية ، وبالجزيئات التطبيقية في الحياة البشرية، وانطباقها على شريعة الله، وعلى تقرير الأصل الذي يجب أن تستند إليه، وهو حاكمية الله .. أو بتعبير أخر ربوبية الله ، فلماذا يحفل المنهج القرآني هكذا بهذه القضية ؟ يحفل بها لأنها من ناحية المبدأ تلخص قضية " العقيدة " في الإسلام، كما تلخص قضية " الدين " فالعقيدة في الإسلام تقوم على أساس شهادة : " أن لا إله إلا الله " ، وبهذه الشهادة يخلع المسلم من قلبه ألوهية كل أحد من العباد ويجعل الألوهية لله ، ومن ثم يخلع الحاكمية عن كل أحد ويجعل الحاكمية كلها لله ، والتشريع للصغيرة هو مزاولة لحق الحاكمية كالتشريع للكبيرة ، فهو من ثَمَّ مزاولة لحق الألوهية يأباه المسلم إلا لله ، والدين في الإسلام هو دينونة العباد في واقعهم العملي - كما هو الأمر في العقيدة القلبية - لألوهية واحدة هي ألوهية الله ، ونفض كل دينونة في هذا الواقع لغير الله من العباد المتألهين، والتشريع هو مزاولة للألوهية، والخضوع للتشريع هو الدينونة لهذه الألوهية ، ومن ثم يجعل المسلم دينونته في هذا لله وحده، ويخلع ويرفض الدينونة لغير الله من العباد المتألهين!، من هنا ذلك الاحتفال كله في القرآن كله بتقرير هذه الأصول ألاعتقاديه ومنها الحاكمية "[1] .

ومنهج القران الكريم يقرر: " أنه لا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم، أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج وتحت تصرفه وتوجيهه ، وعلى وجه التحديد لا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر.. مستمدةً من غيره ، وإلا فلا إيمان ولا إسلام ، لأن ذلك يعارض شهادة "لا إله إلا الله " التي ينشأ منها "أن لا حاكم إلا الله ، وان لا مشرع إلا الله "[2].

" والسياق القرآني يستند في تقرير أن الحكم بما أنزل الله هو " الإسلام " وأن ما شرعه الله للناس من حلال أو حرام هو " الدين " إلى أن الله هو " الإله الواحد " لا شريك له في ألوهيته ، والى أن الله هو " الخالق الواحد" لا شريك له في خلقة ، وإلى أن الله هو " المالك الواحد " لا شريك له في ملكه ، ومن ثم يبدو حتميًا ومنطقيًا إلا يقضي بشيء إلا بشرعه وإذنه ، فالخالق لكل شيء المالك لكل شيء هو صاحب

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١١-١٢١٢ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٧٠٥ بتصرف .

الحق وصاحب السلطان في تقدير المنهج الذي يرتضيه لملكه وخلقة ، وهو الذي يشرع فيما يملك، وهو الذي يطاع شرعه، وينفذ حكمه، إلا فهو الخروج والمعصية والكفر .

إنه هو الذي يقرر الاعتقاد الصحيح للقلب ، كما يقرر النظام الصحيح للحياة سواءً بسواء ، والمؤمنون به هم الذين يؤمنون بالعقيدة التي يقررها ، ويتبعون النظام الذي يرضيه ، هذه كتلك سواءً بسواء ، وهم يعبدونه بإقامة الشعائر ويعبدونه بإتباع الشرائع بلا تفرقه بين الشعيرة والشريعة فكلتاهما من عند الله الذي لا سلطان لأحد في ملكه وعباده معه ، بما أنه هو الإله الواحد ، المالك الواحد ... ومن ثم فإن الحكم بشريعة الله هو دين كل نبي ، لأنه هو دين الله لا دين سواه "[1].

" وهكذا تتبين القضية : إله واحد ، وخالق واحد ، ومالك واحد ، وحاكم واحد، ومشرع واحد ومتصرف واحد ، وإذن فشريعة واحدة ، ومنهج واحد ، وقانون واحد ، وإذن فطاعة وإتباع وحكم بما أنزل الله فهو إيمان وإسلام ، أو معصية وخروج وحكم بغير ما أنزل الله فهو كفر وظلم وفسوق وهذا هو الدين كما أخذ الله ميثاق العباد جميعا عليه ، وكما جاءت به كل الرسل من عنده ..، ولم يكن بد أن يكون " دين الله " هو الحكم بما أنزل الله دون سواه ، فهذا هو مظهر سلطان الله، مظهر حاكمية الله ، مظهر" أن لا إله إلا الله "، وهذه الحتمية : حتمية التلازم بين "دين الله " و " الحكم بما أنزل الله" لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع، فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية ، وليس الأول ولا الرئيسي ،إنما السبب الأول والرئيسي والقاعدة الأولى والأساس في حتمية هذا التلازم هي : أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله ، ونفي لهذه الألوهية وخصائصها عمن سواه ، وهذا هو " الإسلام " بمعناه اللغوي " الاستسلام " ، وبمعناه الاصطلاحي كما جاءت به الأديان .

الإسلام لله ، والتجرد عن ادعاء الألوهية معه ، وادعاء اخص خصائص الألوهية وهي السلطان والحاكمية ، وحق تطويع العباد وتعبيدهم بالشريعة و القانون ...

ومن هذه الحتمية ينشأ الحكم الذي تقرره الآيات ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ

(١) في ظلال القرآن٢/ ٨٢٦ وينظر : ٢/ ٦٩٦ ، ٧٧١ ، ٨٢٨ ، ٩٧٢ ، ١١٧٩ ، ١١٩٣ ، ١٢٢٩ ، ١٣٠٧.

ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ -ٱلظَّٰلِمُونَ -ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[١]. فالذين لا يحكمون بما أنزل الله يعلنون رفضهم لألوهية الله بعملهم وواقعهم، وان لم يعلنوه بأفواههم وألسنتهم، فلغة العمل أقوى من لغة الفم "[٢].

"إن قبول شريعة الله و الرضى بحكمها هو مظهر الإقرار بألوهيته وربوبيته وقوامته، ورفضها والتولي عنها، هو مظهر رفض هذا الإقرار "[٣].

و" إن المقتضى البديهي للإيمان، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به، وإلى من آمن به، فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه، ثم دعي إلى هذا الذي آمن به ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية، فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية ويكشف عن النفاق وينبئ عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان! ، وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله - سبحانه - أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله، ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله، بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدودًا! "[٤].

" فما يمكن أن يجتمع الإيمان وعدم تحكيم شريعة الله، أوعدم الرضى بحكم هذه الشريعة، والذين يزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أنهم " مؤمنون " ثم هم لا يحكمون شريعة الله في حياتهم، أولا يرضون حكمها إذا طبق عليهم، إنما يدعون دعوى كاذبة ويصطدمون بهذا النص القاطع ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٥].

" فالله - سبحانه- يقسم بذاته العلية أنه لا يؤمن مؤمن حتى يحكم رسول الله - ﷺ- في أمره كله. ثم يمضي راضيًا بحكمه مسلمًا بقضائه، ليس في صدره حرج منه، ولا في نفسه تلجلج في قبوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[٦]

" فهذا شرط الإيمان وحدّ الإسلام، يقرره الله سبحانه بنفسه ويقسم عليه بذاته فلا

---

(١) الآيات ٤٤ و٤٥ و٤٧ من سورة المائدة. .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٢٨-٨٢٩ بتصرف يسير.

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٥.

(٤) المصدر السابق ٢/ ٦٩٤ وينظر: ٢/ ٦٨٧.

(٥) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٥ وينظر: ٢/ ٨٩٨-٩٠١، ٩٧٠، ١١٨٤.

(٦) سورة النساء: الآية ٦٥.

يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام ، ولا تأويل لمؤول، اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام، و تحكيم رسول الله - ﷺ- هو تحكيم شريعته ومنهجه ... فالتحاكم إلى شريعة الله وحكم رسوله و الرضى والقبول والتسليم هو الإسلام والإيمان . فلتنظر نفسه أين هي ، قبل ادعاء الإسلام والإيمان .." [١] ، ذلك أن " من لم يحكم بما أنزل الله كافر، ومن لم يرضى حكم الله لم يدخل في الإيمان، لأن حكم الله هو دينه ، وهو منهجه الذي ارتضاه للحياة ، وهو " الإسلام " الذي لا يقبل الله من الناس دينا سواه .." [٢] .

رابعًا: وقفات مع الانتقادات الموجهة لسيد قطب حول قضية الحاكمية:

وجهت إلى سيد كثير من الانتقادات حول مسالة الحاكمية سواء من العلمانيين أو من بعض الإسلاميين ويمكن استعراض هذه الانتقادات وبيانها فيما يأتي :

١ - أن مصطلح الحاكمية مصطلح مخترع لم يرد في الشرع :

يردد البعض أن " الحاكمية " مصطلح حادث لم يرد في القرآن الكريم ولا في السُّنَّة النبوية، فضلا عن إضافة هذا اللفظ إلى المولى-عزَّ وجلَّ- وأن أول من نادى بها واخترعها هو المودودي وتابعه سيد قطب " [٣] .

والواقع أنه من خلال استعراضنا فيما سبق لمعنى الحاكمية في اللغة و الشرع واصطلاح أهل الفنون ، ومن بيان حقيقة الحاكمية التي نادى بها المودودي وسيد قطب ، ظهر لنا أنهم يقصدون الحاكمية التشريعية بان يكون الله وحده هو المشرع لخلقه الذي يأمرهم وينهاهم ، ويحل لهم ويحرم عليهم ، وهذا المعنى ليس من ابتكار المودودي ولا سيد قطب ، بل أمر مقرر عند المسلمين جميعًا ومعلوم من الدين بالضرورة [٤]، ولهذا حين قال الخوارج لعلي- رضي الله عنه - " لا حكم إلا لله" لم يعترض - رضي الله عنه - على المبدأ ، وإنما اعترض على الباعث والهدف المقصود وراء الكلمة فقال" كلمة حق أريد بها باطل " .

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٦-٦٩٧ بتصرف ، وينظر ٢/ ٦٨٧.

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٤.

(٣) ينظر في ذلك : دعاة لا قضاة، للهضيبي ، ص ٩١ وما بعدها .

(٤) ينظر : بداية هذا المطلب ،النقاط :أولا وثانيا وثالثا .

والباحث في كتب الأصول والتفسير وغيرها يجد علماء الإسلام يتحدثون عن الحكم الشرعي والحاكم والمحكوم عليه ، ويقررون في بحثهم " أن لا حكم إلا لله، وأنه لا حكم للرسول ولا للسيد على العبد ولا لمخلوق على مخلوق ، بل كل ذلك حكم الله - تعالى - ووضعه لا حكم لغيره .. وان استحقاق نفوذ الحكم ليس إلا لمن له الخلق والأمر، أما غيره - سبحانه- فإنما تجب طاعته بإيجاب الله "[1] .

وقد مر معنا أن الحاكمية التي نادى بها سيد هي : ما تدل عليه النصوص الشرعية وكلام أهل السُّنَّة من وجوب إفراد الله بالحكم القدري والشرعي والطاعة المطلقة لله ولرسوله، وبالتالي لا مشاحّة في الاصطلاح مادام مضمون هذا المصطلح موافق لما جاء به الشرع وما عليه أهل العلم في هذا الباب .

والقول بان فكرة " الحاكمية " من اختراع المودودي وسيد قول جانبه الصواب كما سبق .

٢ - أن سيد في مناداته بالحاكمية متابع للخوارج :

فالخوارج أول من رفع شعار " لا حكم إلا لله "[2] ، ومن خلال النظر في معنى هذه الكلمة " لا حكم إلا لله " عند الخوارج ثم عند سيد قطب ، يتبين لنا مدى الاختلاف الجذري بينهما :

فالخوارج رفعوا شعار "لا حكم إلا لله" عند واقعة التحكيم بين علي ومعاوية -رضي الله عنهما- وكان أهل الشام عندما رأوا أنهم سيهزمون قد رفعوا المصاحف على الرماح ، فأشار الخوارج على علي- رضي الله عنه- بقبول التحكيم وضغطوا عليه حتى قبل، ثم لما تم التحكيم أعلنوا شعار " لا حكم إلا لله " وطلبوا التراجع عن التحكيم والقتال ، فلما أبى جعلوا من ذلك سببًا لتكفيره هو ومعاوية والحكمين- رضي الله عنهم- ومن معهم جميعًا [3] ، وكان مقصدهم من رفع هذا الشعار، نفي أن يكون للناس

---

(١) المستصفى من علم الأصول، للإمام أبي حامد الغزالي ص ٢٨٥ وما بعدها بتصرف .

(٢) انظر : الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية لهشام احمد عوض ص ٧٧ .

(٣) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٧/ ٣٠٤ وفتح الباري ١٥/ ٣١٠ والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٤٦-٤٨ .

أمير[١].

أما سيد - رحمه الله - فعندما نادى " بالحاكمية " ورفع شعار "لا حكم إلا لله" كان مقصده من ذلك إفراد الله - سبحانه - بالحكم القدري المتمثل بالخلق والإيجاد والتدبير، وبالحكم الشرعي المتمثل بإفراده - سبحانه - بحق الأمر والنهي والتحليل والتحريم والتشريع للبشر والانقياد لحكم الله وشرعه والتحاكم إليه في كل شؤون الحياة والرد إليه عند التنازع مع الرضى والتسليم ، وهذا يقتضي أن يكون للناس أمراء وحكامًا ، لكن مهمتهم ليست التشريع والتحليل والتحريم، إنما سلطانهم مستمد من طاعتهم الله وتنفيذهم لشرع الله "[٢] .

وبهذا ندرك الفرق بين شعار الخوارج " لا حكم إلا لله " وبين الشعار الذي رفعه سيد - رحمه الله- "لا حكم إلا لله " .

٣- أن فكرة الحاكمية عند سيد قطب هي نفس فكرة الدولة الثيوقراطية[٣] :

زعم بعض خصوم الحكم الإسلامي من العلمانيين أن مفهوم الحاكمية عند سيد - رحمه الله - يعني الدعوة إلى شريعة كونية ، وهي تماثل الحكومة الدينية في أوربا المعروفة بالثيوقراطية ،والتي تعني الحكم القائم على أساس التفويض الإلهي، فالحاكم لا يختاره الناس بل يختاره الله ويحكم باسم الله " .

والرد على هذا الادعاء يتلخص في الآتي :

أ- أن " الحاكمية " التي قال بها سيد وجعلها لله وحده ، لا تعني أن الله تعالى هو الذي يولي العلماء والأمراء يحكمون باسمه ، بل المقصود بها الحاكمية التشريعية التي تفرد الله بالأمر والنهي والتشريع وتستمد طاعتها من قيامها بشريعة الله ، أما تعيين الأمراء والولاة فهو حق للأمة المسلمة في ظل الضوابط الشرعية ، فالأمة هي التي تختار حكامها وهي التي تحاسبهم أو تعزلهم ، وبهذا يظهر الفرق الكبير بين المفهوم الثيوقراطي للحكم وبين " الحاكمية " التي نادى بها سيد قطب.

---

(١) الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية لهشام عوض ص ٧٧ .

(٢) ينظر : معالم في الطريق ص ٢٦ ،٣٠، ٥٢ ، ٦٧ .

(٣) الثيوقراطية : مصطلح يوناني مكون من كلمتين هما " ثيو " ومعناه: إلهي و " كراتيس " ومعناه : حكم ، وهي تعني : " الحكم الديني والإلهي " أو " الحكم المقدس " .

ب- أن سيد نفسه يحارب فكرة الحكم الثيوقراطي في كتابة " معالم في الطريق " حيث قرر أن : " الحاكمية " حق لله وحده باعتباره الذي يخلق ويرزق ، وأن دين الله منهج حياة محدد بشهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " ، وهو الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه .

وبالتالي ليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه : هذا شرع الله ، إلا أن تكون "الحاكمية" العليا لله معلنة ، وان يكون مصدر السلطات هو الله - سبحانه- ، لا "الشعب" ولا " الحزب " ولا أي من البشر، وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لمعرفة ما يريده الله .

ولا يكون هذه لكل من يريد أن يدعي سلطانا باسم الله ، كالذي عرفته أوربا ذات يوم باسم " الثيوقراطية " أو " الحكم المقدس " فليس شيء من هذا في الإسلام، وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله ﷺ ، وإنما هنالك نصوص معينة هي التي تحدد ما شرع الله " [1].

ويقول أيضًا :" ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم - هم رجال الدين - كما كان الأمر في سلطان الكنيسة ، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة ، كما كان الحال فيما يعرف باسم " الثيوقراطية " أو " الحكم الإلهي المقدس "!!! ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة .. وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة " [2] .

وبهذا يظهر لنا أن " الحاكمية " التي دعا إليها سيد - رحمه الله - لا تعني "الحكم الثيوقراطي " كما زعم العلمانيون ، لأن الحكم الثيوقراطي المقدس الذي ساد أوربا خلال فترة سيطرة الكنيسة، يقوم على أن البابا وهو يحكم في أمور الدنيا ينطق باسم الله ، فما يحله البابا في الأرض يحله الله في السماء وما يحرمه الباباوات في الأرض يحرمه الله في السماء ، فالحكم الثيوقراطي قائم على أساس التفويض الإلهي ، فالحاكم لا يختاره الناس بل يختاره الله ، وبالتالي يحكم باسم الله ، وما يقوله أو يصدر عنه إنما يصدر عن الله الذي فوضه ، ولذلك كان الحاكم الديني في أوربا يملك صكوك

(١)معالم في الطريق ص ١٠٤-١٠٥ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ص ٦٨ .

الغفران والحرمان بتفويض من الله .

بينما الحاكمية التي دعا إليها سيد قطب- رحمه الله - تعنى حاكمية الشريعة، فالحكم في الإسلام محدد فيما بلغه الرسول ﷺ عن ربه من قرآن وسنة ، وأنه لا اجتهاد مع النص ،وأنه يرجع فيما لا نص فيه إلى الأصول المقررة والقواعد العامة ليستنبط منها الحكم .

كما أن الحاكم في الإسلام لا يختاره الله ، بل يختاره الناس طبقا لشروط القران الكريم والسُّنَّة ، وبالتالي ليس مفوضًا من الله أن يحكم باسمه ويحلل ويحرم ويشرع من عنده ، بل يستمد سلطانه وطاعته من طاعته هو لله وتنفيذ لأوامر الله وأحكامه [1].

والفرق جلي وواضح بين مفهوم الحاكمية التي دعا إليها سيد - رحمه الله - وبين مفهوم الحكم " الثيوقراطي" .

(١) معالم في الطريق ص ١٠٥ ، وأضواء على معالم في الطريق، للمستشار سالم البهنساوي ص ١٦٣-١٦٤ .